إنعام رعد



المدرحية

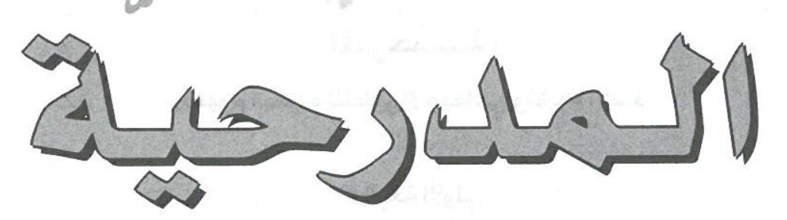




A
324.2569
S111r
c.1

A
324.2569
S111r





مفهوم سعاده للتطور الاجتماعي ونشوء الأمم



مؤسسة إنعام رعد الفكرية



دار فكر للأبحاث والنشر

AU LIBRARY - BEIRUT
16 APR 2002
RECEIVED

Gift 21389

3

المدرحيّـــة:

مفهوم سعاده للتطور الاجتماعي ونشوء الأمم

الطبعة الأولى
كانون الثاني 2002

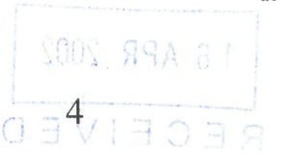
جميع الحقوق محفوظة



مؤسسة إنعام رعد الفكرية



دار فكر للأبحاث والنشر



مقدمة

إنعـام رعـد، مناضل قـومي كبير، عرفه رفقاؤه حزبياً ملتزماً، وعـرفـه أهل السـيـاسـة سـيـاسـيـاً مـحنكاً ، وعرفـتـه منابر الثـقـافـة مثقفاً بامتياز، وعرفه أهل الفكر مـفكراً، وعـرفـه الـنـاس بكل هذه الصفات.

لقد تميز إنعام رعد ، بأنه كان واحـداً من رجـالات النهـضـة البارزين الذين تمتعوا بادراك عال وتعمقوا في فهم مضمون العقيدة القـومـيـة الاجـتـمـاعـيـة، وأتقنوا التنظير لها ثورياً وسياسياً وفكرياً وفلسفياً.

كـمـا وأن نتـاج إنعـام رعـد الإبداعي على مـدى نصف قـرن ، أكـد على مـيـزته الفكرية ، وعلى فـرادته التي تجلت في مـحـاولاته

مؤسسة
إنعام رعد
الفكرية

الدؤوبة لعقدنة السياسة، فكان شديد الحرص عندما تولى رئاسة الحزب السوري القومي الاجتماعي ، وعمدة الإذاعة والاعلام، وغيرها من المسؤوليات، على خطاب حزبي سياسي بمضمون عقائدي ثوري.

ولأهمية ما قدمه انعام رعد للنهضة في مجالات الفكر والثقافة والسياسة والاقتصاد، تقوم "مؤسسة انعام رعد الفكرية" التي تأسست بعد وفاته بمهمة جمع نتاجه، لإصدارها في كتب تضاف الى مجموعة كتبه التي صدرت في حياته ، وهي مهمة تتطلب جهداً كبيراً نظراً لغزارة انتاجه.

في هذه الكتاب نقدم للقارىء الحزبي ، ولكل أبناء الأمة، وللمكتبة العامة مساهمة فكرية متميزة لـ إنعام رعد بعنوان: "المدرحية: مفهوم سعاده للتطور الاجتماعي ونشوء الأمم" قدمت لندوة "أنطون سعاده مفكراً" التي عقدت في عمان في الفترة ما بين 20 ـ 23 أيلول 1997 بدعوة من الجمعية الفلسفية الأردنية والجمعية الفلسفية العربية وشارك فيها عدد كبير من الباحثين من مختلف كيانات الوطن والمغترب، وأقبل على حضورها حشد من مختلف التيارات الفكرية والعقائدية.

وهذه المساهمة شكلت إحدى أبرز أوراق العمل في الندوة، إذ قدمت قراءة موضوعية تعتبر الأولى في توضيح الفلسفة القومية الاجتماعية المادية ـ الروحية "المدرحية".

مدخل

المدرحيّة: مفهوم سعاده للتطور الاجتماعي ونشوء الأمم

إن هذه المداخلة تشكل محاولة لشرح الفلسفة القومية الاجتماعية، المدرحية، من حيث هي محاولة موسّعة ومركبة لشرح الفلسفة القومية الاجتماعية لنشوء الأمم والتطور الاجتماعي ولعوامل النهوض والثورة المضادة في العصر الحديث، أي نظرة شاملة كاملة في النشوء والتطور والتغيّر الاجتماعي.

1. تحديد نطاق الفلسفة المدرحيّة:

إن منهجية سعاده، الفلسفة المدرحية، هي منهجية تتناول حياة المجتمع وتفسير التاريخ الإنساني. وفلسفة سعاده ليست تفسيراً لما وراء الطبيعة (الكون بحد ذاته)، بل فلسفة المجتمع الإنساني...

يؤكد سعاده، في مقاله "النظام الجديد" والمنشور في 10 كانون الثاني 1947 في أعقاب انهيار الأنظمة العالمية بعد الحرب الثانية، في أسطر قليلة، لكنها حازمة، أن المدرحية بديل "لعقيدة تفسير التطور الإنساني بالمبدأ الروحي وحده وعقيدة تفسيره من جهة أخرى بالمبدأ المادي وحده، وهذه الفلسفة الجديدة التي يحتاج إليها العالم، فلسفة التفاعل الموحد الجامع لقوى الإنسانية، هي الفلسفة التي تقدمها نهضتكم.."

وكما نرى، ففي هذا النص جزم في أن المدرحية - كما يقول سعاده - هي عقيدة تفسير التطور الإنساني وأنها تقوم على فلسفة التفاعل الموحد الجامع لقوى الإنسانية. لأن أساس الارتقاء الإنساني أساس مادي - روحي أي مدرحي. هنا يتحدد النطاق: بأنه تفسير التطور الإنساني وبأنه يقوم على مقولة التفاعل بين العوامل المادية الروحية لأن أساس الارتقاء الإنساني هو أساس مادي روحي فالتفسير هو للإرتقاء باعتماد مقولة التفاعل، من هنا كانت هي المقولة الأم في فلسفة أنطون سعاده.

وكان سعاده قد أعلن في الأول من آذار عام 1940 "إن الحركة السورية القومية الاجتماعية لم تأت سوريّة فقط بالمبادىء المحيية، بل أتت العالم بالقاعدة التي يمكن عليها استمرار العُمران وارتقاء البشرية".

"إن الحركة السورية القومية الاجتماعية ترفض الإقرار باتخاذ قاعدة الصراع بين المبدأ المادي والمبدأ الروحي للحياة الإنسانية، ولا تقف الحركة السورية القومية الاجتماعية عند هذا الحد، بل هي تعلن للعالم مبدأ الأساس المادي - الروحي للحياة الإنسانية ووجوب تحويل الصراع المميت إلى تفاعل متجانس يحيي ويعمر ويرفع الثقافة ويسير بالحياة نحو أرفع مستوى..."

لكن التحديد الأهم للمدرحية جاء في كتاب «الإسلام في رسالتيه»، (ص102) حيث نجد:

"إن المبدأ الذي جاء به سعاده هو نظرة فلسفية شاملة تتناول قضايا العالم الاجتماعية والاقتصادية، وشرحها يقتضي كتاباً على حدة يبحث في المبادىء الماركسية المادية لتنظيم المجتمع، والمبادىء الفاشية النازية الروحية لتنظيم المجتمع، والصراع بين هاتين الفئتين من المبادىء، ثم مبدأ سعاده الذي يخرج من القاعدتين المتصادمتين بقاعدة واحدة عامة يمكن أن تجمع عليها الإنسانية وهو بحث واسع، بل فلسفة كاملة في الاجتماع والتاريخ..."

كم هو واضح من هذه النصوص أن نطاق فلسفة سعاده "هو تفسير التطور الإنساني والارتقاء الإنساني، وهو يشكل نظرية فلسفية شاملة تتناول قضايا العالم الاجتماعية والاقتصادية وفلسفة كاملة في الاجتماع والتاريخ".

كما أوضح سعاده، أنه كان يرغب في وضع هذا البحث الواسع في كتاب على حدة، يقدم نظرته عبر مقارنة مع المبادىء المادية - الماركسية والفاشية - الروحية، كما ويتضح أن رفض سعاده لهاتين النظريتين وتصادميتهما ومحاولة تقديم البديل الفعلي، لم يكن فاشياً بقدر ما لم يكن شيوعياً. المسألة الأخيرة هامة، لأنه في مرحلة معينة اعتقد الجميع أننا فاشيون فالنص المتقدم هو في عام 1940 في عز انتصارات المحور الفاشي. والقومية الاجتماعية هي عقيدة تحرر قومي بينما الفاشية عقيدة توسع استعماري، فضلاً عن انطلاق الأولى من العقل والثانية من الحدس، وارتكاز الأولى على مساواة الأمم والثانية على سيطرة أمة مختارة على جميع الأمم، وأخيراً اعتماد الأولى علم الاجتماع وتطوره في وجه العنصرية الخرافية.

إن رغبة سعاده في وضع بحث واسع مقارن بين هذه المذاهب وفلسفته المدرحية، لم تتحقق في ظل ظروف الصراع القاسي الذي قاد بها حزبه وانتهت باستشهاده المبكر في الثورة القومية الاجتماعية الأولى عام 1949، مع ذلك، فإن مرتكزات هذه الفلسفة قائمة في كل كتاباته، وعلينا تقع مهمة استقرائها منها واعتماد منهجه في الفهم والتحليل وصولاً إلى الخلاصات الفكرية..

يحدد سعاده في مقال له بعنوان "نظرة سعاده إلى الإنسان وذلك في كتاب «شروح في العقيدة» (ص 163) نطاق فلسفته بالقول: "..فموضوع فلسفة الزعيم

إذن، هو الإنسان والقيم الإنسانية لا منشأ الكون".. فموضوع المدرحية إذن هو التطور الإنساني للمجتمع والتاريخ والقيم الإنسانية ولا شيء آخر، من هنا فإن المدرحية ليست فلسفة ميتافيزيكية تجمع بين الفلسفة الروحية والفلسفة المادية، فهي كما سبق لسعاده وأوضح، لا تمت بأية صلة للبحث في منشأ الكون أو في طبيعة الأشياء أو في الإنسان – الفرد أو بماهية الوجود.

إن كل ترجمة للمدرحية في نطاق الماهية أو في نطاق ما وراء الوجود أي بماهية الكون ومبدئه تكون خارج نطاقها الإنساني المحدد.

كما أن لا علاقة للمدرحية بالإنسان كظاهرة على طريقة (فاليري شاردان) لأنها لا تدرس ماهية الإنسان كظاهرة، بل تدرس الإنسان – المجتمع والقيم الاجتماعية.

ثم إن المدرحية ليست خلطاً للمادة بالروح أو بالعكس أو توفيقاً بينهما – كما يتبادر للوهلة الأولى – من التسمية، فالمدرحية هي القومية الاجتماعية في نطاقها الفلسفي، إذ إن انطلاقها من المجتمع وتفسير تطوره يؤكد على وحدة وتكامل العوامل المادية – الروحية (النفسية) في التطور الاجتماعي وهذا يعني أنها ليست تسوية بين المادية والروحية أو توفيقاً بين مذهبين نقيضين أو توسطاً بين سويتين. إن مثل هذا الفهم ينطلق إما من المادية وصولاً إلى الروحية أو بالعكس...

إن المدرحية تتجاوز تناقض المذهبين المتصارعين بانطلاقها من التفاعل كمقولة أساسية تتكامل فيها العوامل الدافعة للتطور والارتقاء الإنسانيين. إنها كما قال سعاده "فلسفة التفاعل الموحد الجامع لقوى الإنسانية.." فالتفاعل هو إذن، محور المدرحية، ومحركها، ودائرة الاستقطاب في منهجها، المقولة الأم، التفاعل هو الإفصاح عن المدرحية وتبيان أبعادها الفلسفية في فهم التطور والارتقاء الإنساني وكل ما يتفرع منهما.. هو ذا اتجاه سعاده، اتجاه فلسفة سعاده المدرحية، هذا الاتجاه نتلمسه في أكثر من موضع، فمثلاً في نشوء الأمم، (ص:89) نجد سعاده يقول "رأينا فيما تقدم من فصول هذا الكتاب الأسس والخطط العامة لتطور البشرية وارتقائها في ثقافاتها المادية الناتجة عن تفاعل الإنسان والطبيعة..

"ورأينا كيف أن الثقافة النفسية جارت الثقافة المادية وقامت عليها، إذ إن الحياة العقلية لا يمكن أن تأخذ مجراها إلا حيث تستتب لها الأسباب والمقومات، لذلك نجد التطور الثقافي بجميع مظاهره يرتقي ويسبق غيره حيث أسباب الحياة أوفر وأرقى ما في سواه.." ويقول في كتاب التعاليم "القوة النفسية مهما بلغت من الكمال هي أبداً محتاجة إلى القوة المادية، بل إن القوة المادية دليل قوة نفسية راقية.."

2. المرتكزات الأساسية لفهم المدرحية:

لا يمكن فهم المدرحية إلا بالعودة "لنشوء الأمم" ودرس منهجية سعاده فيه فتفسير التطور الإنساني عنده هو، في نشوء الأمم، مرتكزاً ومنهجاً.

فتفسير التطور الإنساني يظهر عند سعاده في سياق عملية الارتقاء من البداوة إلى الحضارة يدرسها في فصول "نشوء الأمم" بدقة.

ففي تلك الفصول، تنهض مقولة التفاعل، كمقولة أمّ لكل الفلسفة القومية الاجتماعية. فالتفاعل هو بين الجماعة والأرض، الجماعة المتفاعلة داخلياً والبيئة الطبيعية المحيطة، والتي تبدأ أولاً في عصر الاحتكاك لتتحول إلى مرتبة أرقى هي التفاعل المبدع للوسائل. ففي مرحلة الاحتكاك اخترعت وسائل توليد النار التي مهّدت السبيل لنشوء النطق الذي "كفل بتحويل الاكتشافات والاختبارات التطورية الأولية لمعارف اجتماعية وراثية (اجتماعياً). أعدّت النار الإنسان السابق لدخول العصر الحجري الذي هو بدء الإنسان الذي ولى الحيوان ظهره وبدء الثقافة الإنسانية" (ص: 67).

ويتابع سعاده تفسيره للتطور الإنساني منطلقاً من مقولة التفاعل، فمن الاحتكاك إلى الزراعة، فخلال مراحل الارتقاء والتطور الإنساني يؤكد سعاده أن امتياز الإنسان عن الحيوان في سد حاجته مداورة بإعداد الأدوات... " جعل علاقته بالأرض أمتن من علاقة سائر الكائنات الحية بها، إذ هو يقدر على معالجتها مباشرة، فحيث لا نبات صالح لغذائه يحفر في الأرض وينقب ويزرع وحيث بعض الحبوب والنباتات واللحوم لا تصلح لتناولها مباشرة يعمل الإنسان إلى معالجتها بالطبخ والشي، فالأرض تكيّف الإنسان وهو بدوره يرد الفعل ويكيّفها.("نشوء الأمم" ص: 49).

إذن، هو الإنسان والقيم الإنسانية لا منشأ الكون".. فموضوع المدرحية إذن هو التطور الإنساني للمجتمع والتاريخ والقيم الإنسانية ولا شيء آخر، من هنا فإن المدرحية ليست فلسفة ميتافيزيكية تجمع بين الفلسفة الروحية والفلسفة المادية، فهي كما سبق لسعاده وأوضح، لا تمت بأية صلة للبحث في منشأ الكون أو في طبيعة الأشياء أو في الإنسان - الفرد أو بماهية الوجود.

إن كل ترجمة للمدرحية في نطاق الماهية أو في نطاق ما وراء الوجود أي بماهية الكون ومبدئه تكون خارج نطاقها الإنساني المحدد.

كما أن لا علاقة للمدرحية بالإنسان كظاهرة على طريقة (فاليري شاردان) لأنها لا تدرس ماهية الإنسان كظاهرة، بل تدرس الإنسان - المجتمع والقيم الاجتماعية.

ثم إن المدرحية ليست خلطاً للمادة بالروح أو بالعكس أو توفيقاً بينهما - كما يتبادر للوهلة الأولى - من التسمية، فالمدرحية هي القومية الاجتماعية في نطاقها الفلسفي، إذ إن انطلاقها من المجتمع وتفسير تطوره يؤكد على وحدة وتكامل العوامل المادية - الروحية (النفسية) في التطور الاجتماعي وهذا يعني أنها ليست تسوية بين المادية والروحية أو توفيقاً بين مذهبين نقيضين أو توسطاً بين سويتين. إن مثل هذا الفهم ينطلق إما من المادية وصولاً إلى الروحية أو بالعكس...

إن المدرحية تتجاوز تناقض المذهبين المتصارعين بانطلاقها من التفاعل كمقولة أساسية تتكامل فيها العوامل الدافعة للتطور والارتقاء الإنسانيين. إنها كما قال سعاده "فلسفة التفاعل الموحد الجامع لقوى الإنسانية.." فالتفاعل هو إذن، محور المدرحية، ومحركها، ودائرة الاستقطاب في منهجها، المقولة الأم، التفاعل هو الإفصاح عن المدرحية وتبيان أبعادها الفلسفية في فهم التطور والارتقاء الإنساني وكل ما يتفرع منهما.. هو ذا اتجاه سعاده، اتجاه فلسفة سعاده المدرحية، هذا الاتجاه نتلمسه في أكثر من موضع، فمثلاً في نشوء الأمم، (ص:89) نجد سعاده يقول "رأينا فيما تقدم من فصول هذا الكتاب الأسس والخطط العامة لتطور البشرية وارتقائها في ثقافاتها المادية الناتجة عن تفاعل الإنسان والطبيعة..

"ورأينا كيف أن الثقافة النفسية جارت الثقافة المادية وقامت عليها، إذ إن الحياة العقلية لا يمكن أن تأخذ مجراها إلا حيث تستتب لها الأسباب والمقومات، لذلك نجد التطور الثقافي بجميع مظاهره يرتقي ويسبق غيره حيث أسباب الحياة أوفر وأرقى ما في سواه.." ويقول في كتاب التعاليم "القوة النفسية مهما بلغت من الكمال هي أبداً محتاجة إلى القوة المادية، بل إن القوة المادية دليل قوة نفسية راقية.."

2. المرتكزات الأساسية لفهم المدرحية:

لا يمكن فهم المدرحية إلا بالعودة "لنشوء الأمم" ودرس منهجية سعاده فيه فتفسير التطور الإنساني عنده هو، في نشوء الأمم، مرتكزاً ومنهجاً.

فتفسير التطور الإنساني يظهر عند سعاده في سياق عملية الارتقاء من البداوة إلى الحضارة يدرسها في فصول "نشوء الأمم" بدقة.

ففي تلك الفصول، تنهض مقولة التفاعل، كمقولة أمّ لكل الفلسفة القومية الاجتماعية. فالتفاعل هو بين الجماعة والأرض، الجماعة المتفاعلة داخلياً والبيئة الطبيعية المحيطة، والتي تبدأ أولاً في عصر الاحتكاك لتتحول إلى مرتبة أرقى هي التفاعل المبدع للوسائل. ففي مرحلة الاحتكاك اخترعت وسائل توليد النار التي مهّدت السبيل لنشوء النطق الذي "كفل بتحويل الاكتشافات والاختبارات التطورية الأولية لمعارف اجتماعية وراثية (اجتماعياً). أعدّت النار الإنسان السابق لدخول العصر الحجري الذي هو بدء الإنسان الذي ولى الحيوان ظهره وبدء الثقافة الإنسانية" (ص: 67).

ويتابع سعاده تفسيره للتطور الإنساني منطلقاً من مقولة التفاعل، فمن الاحتكاك إلى الزراعة، فخلال مراحل الارتقاء والتطور الإنساني يؤكد سعاده أن امتياز الإنسان عن الحيوان في سد حاجته مداورة بإعداد الأدوات... " جعل علاقته بالأرض أمتن من علاقة سائر الكائنات الحية بها، إذ هو يقدر على معالجتها مباشرة، فحيث لا نبات صالح لغذائه يحفر في الأرض وينقب ويزرع وحيث بعض الحبوب والنباتات واللحوم لا تصلح لتناولها مباشرة يعمل الإنسان إلى معالجتها بالطبخ والشي، فالأرض تكيّف الإنسان وهو بدوره يرد الفعل ويكيّفها ..("نشوء الأمم" ص: 49).

فمن جملة النتائج التي يقدمها سعاده في "نشوء الأمم"، ما يترتب على نمو العقل الذي يميز الإنسان عن الحيوان. فنمو العقل، يعني له، نمو المعارف الإنسانية، ونمو العلوم في استنباط الوسائل وصولاً إلى التكنولوجيا الحديثة. وعليه، تبرز النتيجة الثانية وهي أن نشوء المجتمع – نشوء الانتاج، فالمجتمع لا يحيا دون إنتاج. بتعبير آخر، تنشأ عملية التفاعل في الأمة التي بدورها تقوم على الإنتاج. وهنا تبرز النتيجة الثالثة، الثقافة، فإذا كان نمو العقل يعني نمو المعارف، فهو يعني أيضاً نمو الثقافة ومن ضمنها العلوم كجزء من المعارف حيث يشغل الجزء الآخر تنظيم المجتمع، تنظيم عملية التفاعل، تنظيم الشأن السياسي والحقوقي – الدولة، تنظيم الشعب، شرائعه، حقوقه المدنية والإنسانية.

الخلاصة:

إن عملية التفاعل هي عملية واحدة، لأنها عملية لا توصف بعناصرها. نحن نتحدث عن العملية لا عن عناصرها وشروطها ومواصفاتها، ما يهمنا من حيث هي عملية، من هنا كانت المدرحية هي وحدة العوامل المادية – الروحية. والتركيب اللفظي، هو تعبير عن التركيب الحياتي الذي لا يمكن من خلاله الفصل بين هذه الظاهرات المتنوعة للعملية الواحدة، فالمدرحية إذن تعبير عن حقيقة العملية الحياتية غير المجزّأة. وسعاده يقول: "لا يمكننا عملياً الفصل بين الحياة ومقوماتها". تنشأ الأمة بالتفاعل، وفي العملية ذاتها ينشأ الاقتصاد وكذلك الثقافة.

فنشوء العمران قاد إلى ثورتين متلازمتين، كما يتضح من "نشوء الأمم"، الأبجدية والتجارة. الإنجاز الثقافي مرتبط بالإنجاز الاقتصادي، العملية الواحدة استتبعت مظهرين وهذا هو التفسير المدرحي للتطور الاجتماعي، فسعاده يعتبر نشوء التجارة – أي التبادل بين الشعوب – كان ثورة اقتصادية هامة قادها الكنعانيون، ذلك أنها احتاجت إلى الأبجدية لتسهيل ذلك التبادل، لتبسيط التعامل الاقتصادي، باعتبار أن الحروف السابقة، المسمارية، لم تكن مؤهلة لمثل هذه العملية، هكذا كانت الثورة الثقافية ملازمة وضرورية للثورة الاقتصادية، وهذا ما يفسر كيفية نشوء الجماعة البشرية بمظاهرها المادية – الروحية التي هي كما هو واضح عملية واحدة فلا يمكن أن نفصل بين التجارة واختراع الأبجدية، لا يمكن أن نعزل الواحدة عن الأخرى، هي ذي المدرحية.

3 - فلسفة التطور الإنساني:

نمو العقل وإنتاج العوامل المادية - الروحية.

يدرس سعاده في كتابه "نشوء الأمم" نشوء الحضارة الإنسانية فيجد أنها العملية نفسها لنشوء الأمم: عملية التفاعل بين الإنسان والبيئة. ومجمل عمليات التفاعل القومية ومحصلتها هي الحضارة الإنسانية المتعددة الألوان. إنه في درسه لعملية التفاعل بين الإنسان والبيئة يقدم تفسيراً لدور العقل الإنساني ونشوئه ونموه وهو المميز للإنسان عن الحيوان، على قاعدة التفاعل مع البيئة، كما إنه يقدم تفسيراً لنشوء الاقتصاد بتفاعل العقل مع البيئة ومواردها، وهو المميز الآخر للإنسان عن الحيوان. والعقل وكل تراثه الثقافي والاقتصادي وكل تراثه العمراني يشكّل جوهر الحضارة الإنسانية المادية – الروحية.

يتميز الإنسان عن الحيوان عند سعاده بعملية التفاعل هذه. "فالأرض تكيّف الإنسان وهو بدوره يرد الفعل ويكيّفها. والى هذه العلاقة المتينة يعود تفوق الإنسان على بقية الحيوانات في تنازع البقاء، يكيِّف الإنسان الأرض ولكن الأرض نفسها تعيّن مدى التكيف وأشكاله حسب بيئاتها الإقليمية".("نشوء الأمم" – ص: 44).

وعلاقة الإنسان بالأرض هي أوثق من علاقة الحيوان بها. وهذا سر تفوق الإنسان على الحيوان في تنازع البقاء، وهذا يعود إلى علاقة التفاعل مع الأرض، لأنه خلاف الحيوان يسعى – كما يقول سعاده – "لبلوغ أربه مداورة (غير مباشرة)". "فحيث لا نبات صالح لغذائه يحفر في الأرض وينقّب ويزرع" (ص:44-46). وأداة التفاعل الإنساني مع البيئة هي العقل، ونطاق فعل العقل الإنساني هي عملية التفاعل هذه.

فمن جملة النتائج التي يقدمها سعاده في "نشوء الأمم"، ما يترتب على نمو العقل الذي يميز الإنسان عن الحيوان. فنمو العقل، يعني له، نمو المعارف الإنسانية، ونمو العلوم في استنباط الوسائل وصولاً إلى التكنولوجيا الحديثة. وعليه، تبرز النتيجة الثانية وهي أن نشوء المجتمع – نشوء الانتاج، فالمجتمع لا يحيا دون إنتاج. بتعبير آخر، تنشأ عملية التفاعل في الأمة التي بدورها تقوم على الإنتاج. وهنا تبرز النتيجة الثالثة، الثقافة. فإذا كان نمو العقل يعني نمو المعارف، فهو يعني أيضاً نمو الثقافة ومن ضمنها العلوم كجزء من المعارف حيث يشغل الجزء الآخر تنظيم المجتمع، تنظيم عملية التفاعل، تنظيم الشأن السياسي والحقوقي – الدولة، تنظيم الشعب، شرائعه، حقوقه المدنية والإنسانية.

الخلاصة:

إن عملية التفاعل هي عملية واحدة، لأنها عملية لا توصف بعناصرها. نحن نتحدث عن العملية لا عن عناصرها وشروطها ومواصفاتها، ما يهمنا من حيث هي عملية، من هنا كانت المدرحية هي وحدة العوامل المادية – الروحية. والتركيب اللفظي، هو تعبير عن التركيب الحياتي الذي لا يمكن من خلاله الفصل بين هذه الظاهرات المتنوعة للعملية الواحدة، فالمدرحية إذن تعبير عن حقيقة العملية الحياتية غير المجزّأة. وسعاده يقول: "لا يمكننا عملياً الفصل بين الحياة ومقوماتها". تنشأ الأمة بالتفاعل، وفي العملية ذاتها ينشأ الاقتصاد وكذلك الثقافة.

فنشوء العمران قاد إلى ثورتين متلازمتين، كما يتضح من "نشوء الأمم"، الأبجدية والتجارة. الإنجاز الثقافي مرتبط بالإنجاز الاقتصادي، العملية الواحدة استتبعت مظهرين وهذا هو التفسير المدرحي للتطور الاجتماعي، فسعاده يعتبر نشوء التجارة – أي التبادل بين الشعوب – كان ثورة اقتصادية هامة قادها الكنعانيون، ذلك أنها احتاجت إلى الأبجدية لتسهيل ذلك التبادل، لتبسيط التعامل الاقتصادي، باعتبار أن الحروف السابقة، المسمارية، لم تكن مؤهلة لمثل هذه العملية، هكذا كانت الثورة الثقافية ملازمة وضرورية للثورة الاقتصادية، وهذا ما يفسر كيفية نشوء الجماعة البشرية بمظاهرها المادية – الروحية التي هي كما هو واضح عملية واحدة فلا يمكن أن نفصل بين التجارة واختراع الأبجدية، لا يمكن أن نعزل الواحدة عن الأخرى، هي ذي المدرحية.

3 - فلسفة التطور الإنساني:

نمو العقل وإنتاج العوامل المادية - الروحية.

يدرس سعاده في كتابه "نشوء الأمم" نشوء الحضارة الإنسانية فيجد أنها العملية نفسها لنشوء الأمم: عملية التفاعل بين الإنسان والبيئة. ومجمل عمليات التفاعل القومية ومحصلتها هي الحضارة الإنسانية المتعددة الألوان. إنه في درسه لعملية التفاعل بين الإنسان والبيئة يقدم تفسيراً لدور العقل الإنساني ونشوئه ونموه وهو المميز للإنسان عن الحيوان، على قاعدة التفاعل مع البيئة، كما إنه يقدم تفسيراً لنشوء الاقتصاد بتفاعل العقل مع البيئة ومواردها، وهو المميز الآخر للإنسان عن الحيوان. والعقل وكل تراثه الثقافي والاقتصادي وكل تراثه العمراني يشكّل جوهر الحضارة الإنسانية المادية – الروحية.

يتميز الإنسان عن الحيوان عند سعاده بعملية التفاعل هذه. "فالأرض تكيّف الإنسان وهو بدوره يرد الفعل ويكيّفها. والى هذه العلاقة المتينة يعود تفوق الإنسان على بقية الحيوانات في تنازع البقاء، يكيِّف الإنسان الأرض ولكن الأرض نفسها تعيّن مدى التكيف وأشكاله حسب بيئاتها الإقليمية".("نشوء الأمم" – ص: 44).

وعلاقة الإنسان بالأرض هي أوثق من علاقة الحيوان بها. وهذا سر تفوق الإنسان على الحيوان في تنازع البقاء، وهذا يعود إلى علاقة التفاعل مع الأرض، لأنه خلاف الحيوان يسعى – كما يقول سعاده – "لبلوغ أربه مداورة (غير مباشرة)". "فحيث لا نبات صالح لغذائه يحفر في الأرض وينقّب ويزرع" (ص:44-46). وأداة التفاعل الإنساني مع البيئة هي العقل، ونطاق فعل العقل الإنساني هي عملية التفاعل هذه.

"تختلف علاقة الطبيعة بالنبات والحيوان عنها بالإنسان. فالعلاقة الأولى علاقة مفردة أو وحيدة الطرف، فالأرض تعد حاجة النبات والحيوان الحيوية، وليس لأحدهما عمل مقصود لتكييف الأرض وإعداد مقومات الحياة". والحيوان الذي هو أقرب إلى الإنسان يقول "سعاده إنه: " لا يعرف إلا سد الحاجة مباشرة، أما علاقة الطبيعة بالإنسان فهي مزدوجة". فمن جهة تقدم الطبيعة للإنسان المواد الخام ومن جهة ثانية هي مشهد أعماله وسعيه لبلوغ أربه مداورة، بتفجير طاقات الأرض، بحفر البئر وزرع الحقل في المرحلة البدائية وباختزان الطاقة وتفجير الذرة في العصر الحديث إنما هي حصيلة فعل المسيرة الإنسانية - العقل في البيئة وهذا هو المسير لعملية التفاعل بين الإنسان وبيئته ومنشأ الحضارة الإنسانية.

وهذا كما يقول سعاده هو "الفارق الأساسي الأول الذي يجعل لأعمال الإنسان وللاجتماع البشري صفة مستقلة تبطل كل مقابلة "اجتماعية" بين الإنسان والحيوان، وهو ظهور الفكر الذي له كل الأهمية في الحياة والاجتماع الإنسانيين". (نشوء الأمم - ص: 55)، "هي الفوارق في كيفية فهم المحيط من الوجهة النفسية. ففهم المحيط من هذه الوجهة في ما يختص بالظواهر النفسية كالوعي والاحساس والارادة والفكر والتصور وما إليها، ليس مما يمكن استكشافه في الحيوان. وهي هذه الظواهر التي لها كل الأهمية في حياة الإنسان الاجتماعية - في فهم الإنسان لمحيطه. وهكذا نرى أن موضوع استكشاف علم الاجتماع يختلف في الإنسان عنه في الحيوان"(المصدر نفسه).

إن تقدم العقل البشري ونموه الذي هو أساس نمو الحضارة الإنسانية، إنما حصل بحافز ونتيجة التفاعل مع البيئة لبلوغ الأرب مداورة. وفي هذه العملية نشأت عمليتان عقليتان متكاملتان، عملية تنظيم المجتمع وعملية تنظيم علاقة المجتمع مع البيئة. عملية تنظيم المجتمع هي التي عينت الحقوق المدنية والسياسية وأبرزت كيان الدولة والشرائع والموجبات، وعملية تنظيم علاقة المجتمع مع البيئة هي التي أنتجت الاقتصاد. أي المظهرين النفسي والمادي لحضارة الإنسان.

إن فعل العقل الإنساني وتفاعله المميز مع البيئة يتجه من عملية حفر البئر لتخزين المياه إلى عملية تفجير الذرة لتخزين الطاقة في العصر الحديث. وهذا الملمح الآخر للإنسان عن الحيوان، هو الاقتصاد. الاقتصاد هو، الإنتاج، هو حصيلة تفاعل عقل الإنسان مع ممكنات البيئة الطبيعية. ولذلك اعتبر سعاده "الرابطة الاقتصادية هي الرابطة الاجتماعية الأولى في حياة الإنسان أو الأساس المادي الذي يقيم الإنسان عليه عمرانه فلا نستطيع أن نتصور مجتمعاً يقوم على غير أساس التعاون الاقتصادي لسد الحاجة مداورة تعويضاً عن نقص وجود المادة المحتاج اليها"(ص: 62).

إن هذه الظاهرات الإنسانية العامة للتفاعل الإنساني مع البيئة، تخضع لحقيقة "إن الأرض مقسّمة بحسب تكوينها إلى أقاليم وبيئات، ولكل إقليم خصائص تختلف عن خصائص الإقليم الآخر، ولكل بيئة خصائص تتميز عن خصائص البيئة الأخرى. وهذه الخصائص هي التي تعيّن وجهة تقدّم الإنسان في سد حاجاته مداورة - أي مدنيته". (سعاده - نشوء الأمم - ص 44)

لقد أكد سعاده أن التفاعل لا يمكن أن يستقيم إلا بوجود العامل المادي الذي هو البيئة الجغرافية بمواردها وطبيعتها وحدودها. فالعامل الطبيعي إذن عامل أساسي من ضمن علاقة التفاعل التي طرفها الآخر، الفاعل هو الإنسان، الجماعة البشرية، لكن كما أن لا وجود للإنسان بدون أرض فكذلك الأرض دون جماعة بشرية لا قيمة لها. والأرض قيمتها الكبرى عندما تتفاعل معها جماعة بشرية. عندها تصبح الحيز المادي الذي تقوم عليه الحياة. الأرض ضرورية لنشوء الأمم ولكن الأمة بعد أن تنشأ، والمجتمع بعد أن ينهض وينطلق لا يحدّ فعله إلا بفعاليته.

القسم الأول:

نشوء الأمة

1 - مفهوم سعاده الحركي كسر جمود الحتمية

لقد قدّم سعاده عبر هذا المفهوم الدينامي للتفاعل كسراً لجمود الحتمية الجغرافية أو حدودها، بأن علم بإمكان تعديل المجتمع لحدوده على قياس فعاليته وجعل دورة العمران هي الأساس والمحور للحياة القومية، بحيث يمكن أن تمتد على مدى فاعلية المجتمع. وانطلق سعاده من مفهوم التفاعل المنتج "للاتحاد في الحياة".

ليست الأرض منتجة الأمة، وهو مفهوم خطأ ومشوّه للقومية.

ليست الأمة حصيلة حتمية جغرافية. الأرض لا تنشئ الأمة، وليست الأمة من جهة ثانية حصيلة الإنسان في فراغ من الأرض والبيئة. العلاقة الطبيعية الأساسية بين الأرض والإنسان هي محور اهتمام الفكر القومي الاجتماعي. وهذه العلاقة يعبّر عنها سعاده بالتفاعل. فالقومية الاجتماعية هي النظرة التي تنطلق من مقولة التفاعل وليس من مقولة الأرض، ولا من مقولة الإنسان في التجريد. التفاعل بين الإنسان والأرض منذ كان الإنسان وكانت الأرض ودون أي اجتزاء لمرحلة أو حقبة تاريخية هو الذي يسبر أغوار هذا الكائن الحي الذي هو المتحد الأتم وبالتالي هو المجتمع، هو الأمة – المجتمع، الإنسان – المجتمع.

هنا أفق جديد يطل على الشأن القومي وهو أفق خطير ومتسع، لا ينظر إلى الأمة من خلال السياسة أو من خلال العاطفة ولا من خلال نظرات رومانسية استبدادية، بل ينظر إلى الأمة من خلال علم الاجتماع. والأمة على هذا الأساس هي وحدة الحياة، هي المتحد الأتم، كما يقول سعاده، الذي تراز به كل العوامل الأخرى وتقاس على مدى إسهامها في تكوين وحدة الحياة هذه، سواء أكان هذا

الإسهام أساسياً أو فرعياً. فكل العوامل التي اختلف عليها المنظرون والمفكرون تأتي كروافد في هذا النهر وتقاس بالنسبة لإسهامها في قيام التفاعل ونشوء وحدة الحياة القومية. وبهذا اختلفت القومية الاجتماعية عن جميع مدارس الفكر القومي التي راكمت العوامل، وعن مدرسة الفكر الماركسي اللينيني التي حددت الأمة بأربعة عوامل، انتفاء أحدها يبطل وجود الأمة دون التمييز بين العوامل المنشئة للأمة على أساس وحدة الحياة والناتجة عنها.

إن عملية التفاعل لا يمكن أن تكون أحادية البعد، أي ليست مادية فقط ولا روحية فقط، لا، الفلسفات الأحادية البعد لا تكون فلسفة تفاعل. ورغم توكيد سعاده للأساس المادي لكنه يختلف عن الفلسفة المادية في مفصل أساسي هو الذي يميز فلسفة التفاعل عن فلسفة الحتم بمعنى أن العوامل المادية – الروحية متكاملة وهي تجليات مظاهر واحدة، هي عملية التفاعل بمظاهرها المادية والروحية. وليست تقوم على قاعدة العوامل الأساسية والعوامل الثانوية المنبثقة عنها، قاعدة البنية التحتية والبنية الفوقية، فالأساس المادي لا يعني التحكم الكلي والدائم والثابت بالبناء الروحي بل إن علاقة التفاعل التي تحكم هذه العوامل تتيح للعوامل الروحية تأثيراً وفعلاً في العوامل المادية لا تلحظه فلسفة الحتم التي تستدعي التبريرات لفلسفة الاستثناءات غير المتوقعة والتي يؤدي تكرارها إلى نقض القاعدة.

والمفصل الثاني في فهم مقولات سعاده هو إدراكنا لكون مقولة التفاعل كما وردت أعلاه، هي المقولة الأم التي تندرج تحتها المقولات الأخرى بمثابة المظاهر المتنوعة لظاهرة واحدة والنتائج المتعددة لعملية واحدة والمقولات المتتالية لمقولة أساسية. فالتفاعل عملية غنية في مظاهرها ونتائجها وتجلياتها وبالتالي لها طابع الشمول. ذلك لأن التفاعل هو الذي ينتج الحياة، والحياة عواملها متنوعة متعددة متكاملة متشابكة متفاعلة.

إن تحديد سعاده للأمة هو على قاعدة التفاعل، وبالتالي هو مستمد من مبدأ علمي عام لعملية علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية. فالأمة "موحدة المصالح، موحدة المصير، موحدة العوامل النفسية المادية" تحديداً في "قطر معين" "يكسبها تفاعلها معه في مجرى التطور خصائص ومزايا تميزها عن الجماعات الأخرى". على أن التفاعل هو الذي يجعل الأمة موحدة المصالح والمصير والعوامل النفسية – المادية، لأن عنه ينشأ "الاتحاد في الحياة" "أي أن تجري حياة واحدة ذات دورة اجتماعية اقتصادية". حصيلة التفاعل نشوء الحياة الواحدة، نشوء دورة اجتماعية اقتصادية التي هي جوهر وجود الأمة.

ومبدأ الاتحاد في الحياة الناتج عن التفاعل يتجلى في كل نظرية سعاده إلى التطور الاجتماعي ونشوء الأمة عن شمولية العوامل المادية – الروحية وتلازمها. ففي تحديد الأمة – المجتمع الطبيعي يقول سعاده "شرط المجتمع، ليكون مجتمعاً

طبيعياً، أن يكون خاضعاً للاتحاد في الحياة والوجدان الاجتماعي، أي أن تجري فيه حياة واحدة ذات دورة اجتماعية اقتصادية واحدة تشمل المجموع كله وتنبه الوجدان الاجتماعي"(نشوء الأمم ص: 168).

فالاتحاد في الحياة، أي الدورة الاجتماعية الاقتصادية متلازمة مع بروز أو تنبه الوجدان الاجتماعي.

والوجدان الاجتماعي يتشكل في مرتبة أرقى من التفاعل وكحصيلة للاتحاد في الحياة حيث لا فصل بين الدورة الاجتماعية الاقتصادية وبروز الوجدان الاجتماعي، بين العوامل المادية الروحية، المدرحية التي هي مظاهر ونتائج التفاعل ووحدة الحياة.

إن نظرة سعاده تركيبية للشأن الاجتماعي. فالتفاعل هو المقولة الأساسية المنتجة لعمليات وظاهرات متعددة إنما تجري في عملية واحدة حيث تتصهر الأقوام في مصهر التمازج والتفاعل مع بيئتها. فهو يشبّه عملية انصهارها بالمركب الكيميائي الذي تذوب فيه أصوله والذي بدوره يسهم في حيوية الإنسان المتفاعل مع بيئته تفاعلاً ينتج عنه التكامل الاقتصادي، الدورة الاجتماعية الاقتصادية الواحدة وامتداد العمران وخلالها يرتقي العقل في استنباط وسائل الحياة وسد حاجاتها بلوغاً لمرتبة أرقى حيث تكتسب الجماعة شخصيتها وهويتها الحضارية وتبرز في المحصلة النهائية لهذا التفاعل ما وصفه سعاده في مقدمة كتابه "نشوء الأمم" بأعظم ظاهرة اجتماعية في عصرنا "شخصية الأمة» التي هي حسب تعريفه" مركب اجتماعي – اقتصادي"... (نشوء الأمم ص 13) أي مركب مادي روحي.

والشخصية الاجتماعية هي أرقى أطوار التفاعل إذ تمثل قمة الارتقاء من الجماعة البدائية إلى الجماعة المتحضرة الراقية حيث تظهر شخصية الفرد أولاً، حسب "نشوء الأمم"، ثم شخصية المجتمع المركبة كمرتبة أعلى، حيث يضيف الفرد إلى شعوره بشخصيته ووعيه شعوره ووعيه بشخصية مجتمعه فظهور الشخصية الإنسانية هو طور راق في الاجتماع البشري وناشئ عنه وليس منشأ له كما توهمت نظرية العقد الاجتمَاعي. فالفرد لم يوجد إلا في الجماعة. لكن الشخصية الإنسانية بروزها هو طور راقٍ من التفاعل.

2 - الإنسان والأرض ليسا بالتجريد بل على قاعدة مقولة التفاعل:

الإنسان والأرض هما قطبا اهتمام سعاده ولكن ليس بالتجريد، وليس بالمطلق، وليس كلاً منهما على حدة، للدورة الاجتماعية الاقتصادية. وحتى الأرض العامل الأساسي الثاني في عملية التفاعل تخضع لمبدأ التفاعل. يقول سعاده: "وإذا كنا نرى في هذه الحقيقة برهاناً على أهمية الأرض الأساسية في تمييز الجماعات البشرية، فإننا نرى من الوجهة الأخرى أنه لا بد للأرض من جماعة مؤهلة للاستفادة منها". (نشوء الأمم-ص 48).

" ومن هذا نستنتج أن الطبيعة والجغرافية هما الطبقة الداخلية في تاريخ حياة الإنسان، فمع أنهما تميزان الجماعة تمييزاً واضحاً، فإنهما، فيما يختص بتاريخ الجماعة، لا تقدمان الاضطراريات، إلا نادراً وفي حالات استثنائية، ولكنهما تقدمان الإمكانيات"، إن التاريخ غير مكتوب في طبيعة الأرض، ومع أن الأرض هي أحد الافتراضات التي لا بد منها لنشوء التاريخ والعوامل الفاصلة في حياة البشر وتطورها هي العوامل النفسية والفردية، التي، مع أنها تتأثر كثيراً بعامل البيئة، إما أن تستفيد من القاعدة الطبيعية بشأن الجماعات الراقية وإما أن تهملها على حسب استعدادها وإرادتها"(ص: 48، المصدر نفسه).

إن الأمة هي حصيلة التفاعل، حصيلة الحركة الدينامية الاجتماعية المستمرة التي وصفها سعاده بالدورة الاجتماعية الاقتصادية، أي حصيلة التفاعل بين الجماعة البشرية وبيئتها. فمع توكيده على أهمية الأرض.. وهي "أحد الافتراضات التي لا بد منها لنشوء التاريخ" إلا أنه يؤكد على أهمية الطرف

الآخر في عملية التفاعل، الإنسان في فعله وردّ فعله على عملية تكييف البيئة، وهو الذي تميز عن الحيوان ببلوغ أربه مداورة بواسطة العقل.

هكذا إذن سعاده في نظريته لنشوء الحياة - بدونها لا حياة ولا تفاعل - يرى أن الأقوام البشرية محكومة ببيئتها من حيث الشروط المادية التي تحدد نطاق التفاعل ومداه، ولكنه يرفض الحتمية الجغرافية أو أية حتمية، ويرفض النظر إلى الأرض أو الإنسان في التجريد، ونظرته اليهما هي عبر عملية التفاعل المستديمة، فعل ورد فعل، والمنتجة محصلة هي جوهر الوجود القومي: الاتحاد في الحياة - الدورة الاجتماعية الاقتصادية.

إن هذا المفهوم القومي الاجتماعي للشأن القومي يختلف ويتقدم على المفهوم الرومانسي الذي عزل الشؤون النفسية والروحية عن التفاعل الاجتماعي. فسعاده يقول "كل ميزة من ميزات الأمة أو صفة من صفاتها تابعة لمبدأ الاتحاد في الحياة الذي منه تنشأ التقاليد والعادات واللغة والأدب والدين والتاريخ، لقد رفض سعاده بالتحليل العلمي أن تكون هذه العوامل منشئة له. واعتبرها معززة للروابط القومية دون أن تكون سبب نشوئها.

ولقد رفض سعاده قطعاً التعاطي مع تراكم العوامل بل جعل المعيار لا مجموع العوامل تراكمياً بل عملية التفاعل ونتيجتها الصاهرة: الدورة الاجتماعية الاقتصادية، إذ إنه بدل تقديم عامل على عامل قدم على قاعدة التفاعل العوامل التي بدونها لا ينشأ التفاعل على أنها الأساسية: الإنسان والأرض، ثم اعتبر عملية التفاعل ونتيجتها هي التي تعطي لهذه العوامل الأساسية قيمتها.

وإن هذا المفهوم القومي الاجتماعي، ثانياً، باعتماده بدل العوامل منفردة أو متراكمة، عملية (process) مستديمة أعطى للشأن القومي دينامية اجتماعية مميزة. فلم يعد، كما أرادت مدارس الفكر القومي الكلاسيكية، شأناً سكونياً. لقد شدّدت المدارس الفكرية الكلاسيكية في القومية على عامل دون غيره من العوامل أو على مجموعة عوامل، ولكنها نظرت إلى الشأن القومي نظرة سكونية (ستاتيك) فلم تدرك أن اجتماع عوامل معينة ليس كافياً لنشوء الأمة، لأن الأمة ليست مجرد عوامل معينة بل هي حصيلة تفاعل حركي وأنها مركب حياتي – اجتماعي يعلو العوامل المكونة لها في تمامه واستمراره.

إنه من الخطأ أن نتحدث عن عوامل نشوء الأمة وكأن الخلاف هو حول أسبقية هذا العامل أو ذاك بصورة مجرّدة، فنحاول بطريقة محض مدرسية أن نحشد كل الحجج المنطقية لنصرة هذا العامل القومي على ذاك، وهذا هو بالفعل المناخ الفكري الذي عاشه عدد من باحثي موضوع القومية في بلادنا والعالم العربي، حين كانوا يخوضون غمار المناظرات في مناخ من الجدل البيزنطي حول تفضيل اللغة والتاريخ على الأرض أو العكس. ليس الموضوع هو هذا، بل إن مسألة عوامل نشوء الأمة قد اتخذت طابعاً أشمل وأخطر حتى بات الفارق

الأساسي بين نمطين من التفكير القومي، نمط التفكير الستاتيكي الكلاسيكي الذي يعدد العوامل القومية دون أن يدرك صلة التفاعل الحياتية بينها وبين النمط الدينامي الحركي الذي يفهم الشأن القومي على أساس التفاعل الحي الخاص بنمو الجماعة البشرية وحياتها، والذي في ضوئه يمكن تمييز الأساسي من العوامل عن الفرعي منها، وفرز الأسباب عن النتائج.

على قاعدة الاتحاد في الحياة، أي الدورة الاجتماعية الاقتصادية، أي حصيلة التفاعل بين الجماعة القومية وبيئتها الطبيعية، نفهم كل نظرة سعاده إلى الشأن القومي التي تنتظم به المبادئ الأساسية للحزب السوري القومي الاجتماعي والتي هي تطبيق ميداني لهذه النظرة الأساسية على المجتمع القومي في سورية الطبيعية. يقول سعاده في المبادئ الأساسية: "إن الترابط بين الأمة والوطن هو المبدأ الوحيد الذي تتم به وحدة الحياة. ولذلك لا يمكن تصور متحد إنساني اجتماعي من غير بيئة تتم فيها وحدة الحياة والاشتراك في مقوماتها ومصالحها وأهدافها وتمكن من نشوء الشخصية الاجتماعية التي هي شخصية المتحد، شخصية الأمة".

يتضح من هذا العرض أن ثمة ميزتين أصليتين ونوعيتين بين مدرسة فكر سعاده القومية الاجتماعية ومدارس الفكر القومي الأخرى. الأولى: ارتكاز الذاتي على الموضوعي بمعنى أن حب سعاده لإرساء وحدة أمته على مفهوم علمي موضوعي جنّبه استنباط التشديد والتوكيد على هذا العامل أو ذاك خارج الحقائق الاجتماعية. فبقدر ما كان متشدداً في قضية الوحدة القومية بقدر ما كان مهتماً بإرسائها على حقائق علم الاجتماع لا على التعصب النظري التعسفي لعامل من عوامل نشوء الأمة. ومن هنا وقعت المدارس الفكرية الأخرى في تأكيدها على هذا العامل وإسقاطها للعوامل الأخرى بلوغاً للعصبية القبلية بتناقض الذاتي مع الموضوعي. بينما أرسى سعاده الذاتي - الذي هو حب الوحدة - على الموضوعي - على عملية قيامها.

أما الميزة الثانية ففي كون الاتحاد في الحياة - الدورة الاجتماعية الاقتصادية هو مفهوم عملية نامية متكاملة وليست مفهوم تراكم عوامل. الأمة ليست الأرض والإنسان مع أنهما عاملا نشوء الأمة الأساسيان بل هي هذه الحركة الدينامية الاجتماعية المستمرة:"الاتحاد في الحياة والوجدان الاجتماعي، أي تجري فيه حياة واحدة ذات دورة اجتماعية تشمل المجتمع كله وتنبه فيه الوجدان الاجتماعي".

وهذا يعني أن الوحدة التي هي غاية سعاده المنشودة في الشأن القومي لا وجود لها خارج هذه العملية التفاعلية - تسقط عن نظرية الإنسان على أرض مجزأة أو الإنسان المجزأ على أرض موحدة - وهذا هو تلازم القومية الاجتماعية وتكاملها - فالإنسان الذي يبحث عن أصله الدموي أو الرابطة الدينية أو اللغوية

ليس إنسان سعاده المرتبط بالاتحاد في الحياة على أرضه. والإنسان البدوي الذي ينظر بسطحية إلى علاقته بالأرض، ويعتبر أنه من "القوم العابرين" دون عملية التفاعل المستديمة المولدة للدورة الاجتماعية الاقتصادية هو إنسان عابر وتجزيئي. والتعصب للعامل الاقتصادي عامودياً أو للأرض خارج التفاعل في الدورة الاجتماعية الاقتصادية، مفاهيم مادية ولكنها غير تفاعلية، لا تأخذ الواقع الاجتماعي بعين الشمول والاعتبار.

إن أهم ما قدمه سعاده في الشأن القومي هو إرساؤه على علم الاجتماع على أساس مفهوم دينامي يحدد الأمة في ضوء مقولة التفاعل بحركية الدورة الاجتماعية الاقتصادية التي تذيب النزعات العنصرية والقبلية في وحدة الحياة والمصير على وحدة الأرض. انطلاقاً من هذا المفهوم الدينامي فالأمة وجود اجتماعي حقيقي مادي نفسي - اقتصادي - ثقافي - اجتماعي متكامل، وخاضع ككل شأن حي لمبدأ النمو والتطور وفق الشروط المادية النفسية وعلى أساس مقولة التفاعل التي هي جوهر نشوء الأمة، إن هذا المفهوم العلمي أكد موضوعية الشأن القومي وواقعيته الاجتماعية وتجاوز ما وقعت به سواء بسواء النظريات القومية الرومانسية أو العنصرية أو الكلاسيكية الجزئية التي لم تحظَ بالشأن القومي كوجود اجتماعي حقيقي مادي - نفسي - اقتصادي - ثقافي - اجتماعي، أو النظريات الكوزموبوليتية - والأممية المنفلشة التي اعتبرت إمكان تجاوز الشأن القومي كوجود اجتماعي قبل حصول "تطور الشروط المادية - النفسية".

إن هذا المفهوم العلمي إلى الشأن القومي يؤكد حقيقتين هما أبرز حقائق هذا العصر.

1 - مع توكيده على الشأن القومي كوجود موضوعي إلا أنه لا يجعل الأمة فوق المكان والزمان بل إنه وجود موضوعي في سياق التطور الاجتماعي - الوجود الاجتماعي الأتم - المجتمع التام.

2 - القضية القومية والقضية الاجتماعية بكل تنوعاتها الاقتصادية والنفسية هما قضية واحدة قومية اجتماعية. إن التطورات المعاصرة أكدت سقوط الشوفينية القومية وأكدت من جهة ثانية صحة وصوابية الواقعية القومية العلمية كمنطلق اجتماعي. فرغم التطور الهائل الذي قطعه العالم خلال ربع قرن صوب شراكة إنسانية أرحب إلا أنه لم يزل يواجه الواقع القومي كحقيقة اجتماعية والذي درسه سعاده وانطلق منه رغم سقوط النظريات القومية العنصرية أو البرجوازية أو الشوفانية المهووسة. فالأمة كواقع اجتماعي حقيقة إنسانية مستمرة متنوعة ينتفي معها إمكان تعميم تجربة إنسانية واحدة على كل المجتمعات دون خضوع تلك التجربة لتنوع ظروف المجتمعات. ولقد فرضت هذه الحقيقة نفسها على كل المجتمعات على اختلاف أنظمتها فسقط فرض نموذج واحد على عدة مجتمعات متمايزة في ظروفها وخبراتها ومراحل تطورها وتراثها.

3 - الدورة الاجتماعية الاقتصادية:

التقدّم أو التأخر على قدرة الانتفاع من ممكنات البيئة الاقتصادية.
تعديل فعل المجتمع في البيئة بنمو طاقته.
نماذج مختلفة على التفاعل وزخم الدورة الاجتماعية الاقتصادية.

1.3 - المفهوم الدينامي للشأن القومي:

النقطة الأولى، كما قلنا، هي التمييز النوعي بين مدرسة سعاده القومية الاجتماعية وكل مدارس الفكر القومي لجهة الدينامية المنبثقة من مقولة التفاعل والمتجلية بالدورة الاجتماعية الاقتصادية، والستاتيكية القائمة على تراكم العوامل بدل فعل العملية.

ومن هنا ففي «نشوء الأمم» قدم أنطون سعاده نقداً لنظريات الفكر السكوني وتأكيدها على هذا العامل أو ذاك، وحتى الأرض التي بدونها لا حياة - الإطار المادي الضروري للحياة لم ينظر إليه سعاده في التجريد بل من خلال ارتباطه بعملية التفاعل المولدة للدورة الاجتماعية الاقتصادية - وقدم سعاده في هذا فلسفة جديدة لمفهوم الحرية - الحرية بالصراع - الانعتاق الذي يتوصل إليه الإنسان نتيجة سيطرته على شروط حياته المادية خلال عملية التفاعل بنمو فعل العقل في شروط حياته المادية.

هنا يلتحم الذاتي بالموضوعي في نظرية جديدة قدّمها سعاده خلال عملية الحرية بالصراع - التفاعل الصاعد بالإنسان للسيطرة على بيئته بفعل العقل في الشروط المادية - قدم سعاده نظرية جديدة متكاملة تمحورتها مقولة التفاعل

والدورة الاجتماعية الاقتصادية وسنحاول تبيان أبرز معالمها في هذا الدرس المكثف المختصر على أن نحاول توسيعها في أبحاث لاحقة على حدة.

هنا لا يقاس التقدم أو التأخر بالسلالة أو التفوق العنصري كما في النظرات الشوفينية العنصرية بل يقاس التقدم أو التأخر بالممكنات الاقتصادية وبقدرة الأمة على الانتفاع من هذه الإمكانات.

ويعني هذا حسب سعاده عدة إنجازات نظرية خطيرة وكشف معمق للتطور الإنساني وفلسفة المجتمع ونشوء الأمم.

2.3 - علاقة الذاتي بالموضوعي:

فمن جهة يؤكد سعاده في هذا المفهوم علاقة الذاتي بالموضوعي علاقة تفاعلية عضوية لا انفصام فيها. ويستتبع هذا نظرته الى التفاعل بين بيئة جيدة وجماعة مؤهلة للإفادة من ممكنات بيئتها. فليس السهل الخصيب بمنتج لحضارة حتى لو قدم الممكنات الاقتصادية بل الشرط الآخر والأهم هو قدرة الجماعة على «الانتفاع من هذه الممكنات».

وهنا يدخل موضوع العقل وتطوره ومرحلة نموه وثقافة المجتمع. يقول سعاده: «منذ الفترة التي ظهرت فيها الأبجدية إلى جانب التجارة واتحاد هذين العاملين في التفاعل الاقتصادي الاجتماعي اتجه الاجتماع البشري نحو الحياة النفسية (العقلية) وسيطرة العقل على كنوز الطبيعة ومواردها» (نشوء الأمم – ص: 85). ويقول سعاده: «إن الثورة الصناعية وضعت الاجتماع على أساس جديد» (ص:89)، فكلما ازدادت طاقة المجتمع على الفعل في بيئته، كلما تبدّلت معادلة التفاعل بنسبة القدرة الإنسانية على الانتفاع من إمكانات البيئة. ويستتبع هذا مبدأ النسبية الاجتماعية في التفاعل، بمعنى أنه كما هو هام معرفة «ممكنات البيئة الطبيعية» فهام وأساسي أكثر معرفة مرحلة نمو الجماعة البشرية المتفاعلة معها – وبلوغها مؤهلات معينة تمكّنها من هذا التفاعل.

ونحن هنا نطرح – انطلاقاً من سعاده – نظرية كاملة يمكن تسميتها بدرس (جغرافية المجتمع) كما ندرك «جغرافية الأرض».

وهنا تنفتح أمامنا عدة أمثلة أبرزها مثل النفط في البلدان النامية، في الجزيرة العربية مثلاً حيث بقيت صورة البيئة للقوم الذين يقطنونها ولم يتخطوا تحت وطأة قساوتها في تعاطيهم معها ما بدا من سطحها، فكانت بالنسبة لهم أرضاً صحراء يندر فيها الكلأ والمرعى والماء لتربية الغنم، حتى إذا وصلها الإنسان الأوروبي أولاً فالأميركي في القرن العشرين مزوداً بثمار ثورته الصناعية والتكنولوجية تحوّلت البيئة القاحلة – بمقياس البداوة من سكانها – إلى أغنى بيئة – بمعيار تكنولوجية المجتمعات المتقدمة صناعياً – تموج فوق أكبر مستودعات النفط في العالم.

وهذا مثل صارخ على النسبية الاجتماعية في معادلة التفاعل بين المجتمع وممكنات بيئته الاقتصادية وهنا يبرز خطأ النظر المسطح للإنسان أو إلى البيئة دون إدراك علاقة التفاعل ونسبتها.

وطبعاً يخضع هذا المثل وسواه لمعايير وقواعد مهمة تتعلق بما سبق ووصفناه «بجغرافية المجتمع» أي بتشريح لمختلف العوامل النفسية والعقلية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في مرتبة التطور التي بلغها المجتمع المعني بالتفاعل مع البيئة.

إن مفهوم العقل عند سعاده كما بيّن في أبحاث أخرى يتناول العقل بكل أشكاله بمعنى العقل العلمي المتطور من استخدام التكنولوجيا المعاصرة في التفاعل والسيطرة على البيئة، والعقل بمعنى كل المخزون الثقافي للأمة وبالتالي الموقف من السلفية على أساس نقدي ونهضوي، والعقل بمعنى علم الثورات والتغيرات في المجتمع سواء لجهة علاقات المجتمع السياسية والاقتصادية أو لجهة علاقات المجتمع بالمحيط من حوله .

ولهذا كله أبعاده المتكاملة في عملية التفاعل . ذلك أنه، كما سنبين، على مقدار نمو العقل بكل هذه الأبعاد يزداد زخم الدورة الاجتماعية الاقتصادية وفعل الإنسان في الطبيعة . فلا يكفي امتلاك الآلة إن لم تكن علاقات المجتمع وأنظمته متيحة إطلاق حيويته للتفاعل الأقصى. إن ترابط الغايات بالوسائل من أهم مهماتنا لمعادلة التفاعل وزخم أو عدم زخم الدورة الاجتماعية الاقتصادية في مجتمع ما .

إن نظرة سعاده الى الشأن القومي إذ تؤكد ضرورية البيئة الطبيعية كحيز مادي وإطار طبيعي لعملية التفاعل ونشوء الأمة إلا أن الأمة حسب نظريته متى نشأت ونمت تستطيع أن تعدل لا في حدودها فحسب بل في فعالية دورتها الاجتماعية الاقتصادية وفعلها في مواردها وبيئتها وتربيتها .

وهذه هي النظرية الحركية للشأن القومي المنافية أصلاً وأساساً لفكرة الحتمية الجغرافية رغم استنادها الأساسي للواقع الجغرافي كإطار مادي تنشأ فيه دورة العمران القومية. ويشرح سعاده أبعاد هذه العلاقة التفاعلية بين الإنسان والبيئة الطبيعية ومواردها بقوله في (نشوء الأمم) : " إنه بقدر ما هي الحدود الطبيعية جوهرية لصيانة المجتمع من تمدد المجتمعات الأخرى القريبة منه، كذلك هي إلى درجة أعلى طبيعة الأمة ومواردها . فالأمة تكون قوية أو ضعيفة، متقدمة أو متأخرة على نسبة ممكنات بيئتها الاقتصادية ، وقدرتها على الانتفاع من هذه الممكنات والإمكانيات " .

في هذا النص يلخص سعاده أن قوة الأمة أو ضعفها ، تقدمها أو تأخرها إنما يكون على شرطين : ممكنات البيئة الاقتصادية (وهذا هو الشرط الموضوعي)

"وقدرتها على الانتفاع من هذه الممكنات والإمكانيات " وهذا هو الشرط الذاتي العائد لقدرة الإنسان على الفعل في بيئته.

وهنا يبرز النظر المسطح للإنسان أو إلى البيئة دون إدراك علاقة التفاعل ونسبتها.

وطبعاً يخضع هذا المثل وسواه لمعايير وقواعد مهمة تتعلق بما سبق ووصفناه (بجغرافية المجتمع) أي، سوسيولوجيته أي بتشريح لمختلف العوامل النفسية والعقلية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في مرتبة التطور التي بلغها المجتمع المعني بالتفاعل مع البيئة .

3.3 . فلسفة التفاعل تطرح مفهوماً جديداً للتقدم الإنساني على أساس محصلة إسهام تعدد المجتمعات والبيئات:

وهكذا فمسألة فعل الطبيعة في الإنسان أو فعل الإنسان في الطبيعة تعني مقدار التطور الذي بلغه المجتمع في مرحلة تاريخية معينة . وفي عملية تنظيم علاقات الإنتاج وهما كما سنرى عمليتان متمايزتان وإن متكاملتان.

وهكذا تمسك فلسفة سعاده الاجتماعية بالعوامل المادية والنفسية بكل لطائفها ودقائقها من زاوية منشئها في أصل واحد هي عملية التفاعل لتنظيم علاقات المجتمع الداخلية وتنظيم علاقة المجتمع مع البيئة. وفي الحالتين تبرز علاقة العقل والمادة ، الذات والموضوع، الإنسان والبيئة وممكناتها على أنها علاقات التفاعل في شموله العوامل المادية والنفسية.

وأبرز ما في عملية التفاعل بروز العقل واستهدافه عبر مسيرة التفاعل إلى إطلاق الطاقة للسيطرة على المادة وتحويلها أكثر فأكثر نحو طاقة، نحو وسائل حضارية لتقدم الإنسان، وكما أن علم النسبية الرياضية - الفيزيائية يقوم على تحويل المادة إلى طاقة فإن علم النسبية الاجتماعية عند سعاده يقوم على تحويل الإنسان في تفاعله مع ممكنات بيئته للمادة إلى طاقة تكون لها نتائج حضارية وإنسانية، وكون عملية التفاعل بين الإنسان وبيئته استنباط العقل لوسائل تخزين الطاقة وتفجيرها في محاولة الإنسان السيطرة على بيئته وبالتالي فعلم النسبية الاجتماعية مرتكز على علم النسبية الفيزيائية.

في هذا العصر بدأ الإنسان عمليتين: أولاً ـ تخزين الطاقة، ثانياً ـ تفجير الذرة. وفي هاتين العمليتين شرع الإنسان في التغيير والفعل في الطبيعة فعلاً أساسياً. ومن هنا نستطيع أن نتبين عملية التفاعل التي بدأت بانفعال الإنسان ببيئته ومحاولة إنساننا السوري القديم في سومر وبابل عن طريق وضع البدايات لعلم الفلك ورصد الأحوال الجوية ووضع الموازين والمقاييس ثم شق القنوات ليتلافى فيضان الأنهر ثم اكتشافه المحراث، في كل هذه الخطوات الأولى في الحضارة حاول إنساننا أن يروّض الطبيعة ولكن وسائله التكنولوجية (إذا صح التعبير) كانت

محدودة وبدائية في فجر التاريخ. إن العملية التي بدأها إنسان سومر وبابل والمراحل الأخرى من تاريخنا السوري استمرت حتى توصل الإنسان المعاصر إلى تفجير الذرة فارتقى هذا الخط البياني الذي بدأ في الإنسان البدائي.

في الحضارات الأولى من محاولات الإنسان لترويض الطبيعة، ارتقى هذا الخط البياني إلى قمته (تفجير الذرة والوصول إلى القمر) فالثورة التكنولوجية في بدايتها وتطورها وصلت إلى مراحل معينة. في هذا كله تختلف المعادلة في العلاقة بين الإنسان والبيئة لجهة تزايد سيطرة الإنسان على البيئة. هذه هي النظرة القومية الاجتماعية نظرة التفاعل لا الانفعال، نظرة تقدّر ديناميكية التفاعل وديناميكية العلاقة بين الإنسان والبيئة، هذه العلاقة التي تبدأ بسيطة ثم تتزايد وتتصاعد باطّراد.

هناك خطأ فاضح يقع فيه بعض النظريين عندما يعتقدون بأن التكنولوجيا الحديثة هي متساوية في فعلها في كل المجتمعات وبأن بعض مظاهر هذه التكنولوجيا يمكنها أن تبدّل في علاقات الإنسان في بيئته بحيث يصبح العالم كله أمة واحدة. الحقيقة هي أن الثورة التكنولوجية تطبق على مستويات مختلفة بين بيئة وبيئة، الإنسان الذي وصل إلى القمر هو الأميركي والروسي وليس إنسان بلادنا. والإنسان في العالم العربي لم يزل في الطور الأول من الثورة الصناعية.

عندما يتحدثون عن الوحدة الأوروبية في أوروبا يتحدثون عن حصيلة مجتمعات اجتازت ثوراتها الصناعية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتكنولوجية فحققت امتلاءها المجتمعي وتمحورها القومي الذي منه تنطلق إلى التمدد الإقليمي.

الخلاصة:

الخلاصة التي نتوصل إليها من البند السابق هي:

أولاً: إن تمايز الثقافة بين مجتمع ومجتمع إنما تكون تبعاً للمرتبة التي بلغها في عملية التفاعل بينه وبين بيئته الطبيعية، وإن درجة الرقي في التفاعل هي حين يصبح فعل المجتمع الراقي أكثر من انفعاله ببيئته.

ثانياً: إنه على أساس نظرية التفاعل هذه يحصل تقدم البشرية بتقدم مجتمعاتها المرتقية في محصلة عملية التفاعل والقادرة بالتالي على الفعل في بيئاتها وتطويرها.

هذه الخلاصة تتعلق بعلاقة الإنسان بالجغرافية عبر عملية التفاعل.

أما علاقة الإنسان بالتاريخ على قاعدة فلسفة التفاعل ودون إهمال تعدد البيئات فتقوم على أن تقدم البشرية هو حصيلة تقدم مجتمعاتها وتنوع خبراتها وتجاربها.

لقد كان اكتشاف الأبجدية في العصر الكنعاني ثورة إنسانية كبرى دفعت العالم كله باتجاه التقدم، كما كان اكتشاف البحار ذا تأثير كبير في دفع الإنسانية، وأدى قيام الزراعة في الهلال الخصيب إلى عصر مزدهر، كما أدى اكتشاف الفحم واستخدامه في الثورة الصناعية الأوروبية إلى نتائج مذهلة. والنفط فجّرته تكنولوجيا المجتمعات المتطورة بعد أن قبع في جوف الصحراء بالنسبة للمجتمعات في طور البداوة، وأدى اكتشاف الذرة إلى بلوغ عصر تخطى كل العصور السابقة.

هنا تبرز أمامنا مسألتان:

هنا نفهم مدلولين متكاملين للصراع عند سعاده: الأول هو صراع الإنسان مع البيئة، وهو صراع تفاعلي إيجابي منتج للحضارة بوجهيها المادي والروحي، الاقتصادي والثقافي (العقلي)، ويمكن أن نقول إن مقولة الصراع الأساسية هي الحرية. وفي صراع الإنسان مع بيئته يجري الانعتاق، Emancipation الحرية للطاقة الإنسانية بارتقاء التفاعل وتحسن وسائله استنباط العقل الإنساني لوسائل أفعل في عملية التفاعل المجزي.

يقول سعاده "وقد رأى الشعريون والخياليون في الآلة مصيبة أبعدت الإنسان عن الأرض وجمال الحياة الروائية. أما أنا فقد رأيت فيها تحرير القوة العقلية من ضغط العمل الكسبي الفردي وترقية التفاعل الاجتماعي". (نشوء الأمم)

في هذا الكلام يجزم سعاده بأهمية ارتقاء الوسائل التقنية في عملية التفاعل وبالتالي أهمية الآلة، أهمية الثورة الصناعية ولاحقاً الثورة التكنولوجية لتحقيق إعتاق الطاقة الإنسانية "تحرير القوة العقلية" مما يؤدي إلى "ترقية التفاعل الاجتماعي".

ثلاثة معان أساسية في هذا الكلام. أولاً، أهمية استنباط الوسائل وتقدمها وتقنيتها وهي عملية مركبة تؤكد ارتقاء العقل والثقافة والعلوم. ثانياً، علاقتها بتحرير الطاقة الإنسانية بفعل القوة العقلية، وثالثاً انعكاس ذلك على "ترقية التفاعل الاجتماعي" أي على تصاعد فعل الإنسان في البيئة بحدود أكبر وبجهد أقل.

هذا هو المدلول الأول للصراع على قاعدة التفاعل، وهو صراع يعزز الاتحاد في الحياة "الدورة الاجتماعية الاقتصادية الواحدة" للأمة. بمعنى آخر عن هذا التفاعل بين الإنسان وبيئته، عن صراع الإنسان مع الممكنات المادية لاستنباط الحياة وإنتاجها، ينشأ "الاتحاد في الحياة"، أي إن ناموس الصراع عند سعاده على قاعدة التفاعل هو الصراع بالوحدة والصراع المنتج للوحدة: الدورة الاجتماعية الاقتصادية الواحدة.

أما المدلول الثاني للصراع، فهو صراع المجتمع ضد معوقات التفاعل: ضد معوقات الوحدة، وهو ما سنفرد له فقرة خاصة.

القسم الثاني:

الصراع ضد معوقات التفاعل وفق الفلسفة القومية الاجتماعية - «المدرحية»

يندرج تحت هذا الصراع أولاً العقيدة أو الفكرة التي يعتنقها المجتمع لإطلاق عملية التفاعل ولكسر جمود التقاليد ولتجديد الحياة ولتحقيق العدالة وهزم الظلم والتفاوت لإطلاق كامل زخمه في بناء الحياة والارتقاء بها.

1 - عقيدة إطلاق حيوية المجتمع

1.1 - لسنا نرفانيين بل مبدعي حضارة علمية.

تحت بند مدى «مؤهلات الجماعة البشرية» للانتفاع من ممكنات بيئتها الاقتصادية، تدخل عوامل عدة في تقييمنا قدرة المجتمع المعني في مرحلة تطوره ونموّه على الفعل أو عدم الفعل في بيئته. فليس التطور التكنولوجي وحده كافياً حتى لو استورد من الخارج بل إن التطور في الوسائل مفروض أن يشد إلى التبدل في الغايات، إلى نهوض المجتمع من حالة التخلف النفسي والثقافي، وحصول ثورات تهز وجدانه وتبدل مفاهيمه حتى يستطيع أن يستخدم التكنولوجيا بتعبئة كل قدراته، لا أن تكون التكنولوجيا جسماً غريباً عن جسمه وتقاليده وتنظيمه. فالثورة الصناعية في الغرب هي حصيلة ثورات علمية ونفسية واجتماعية وسياسية سبقتها، ومهدت لها وحتى بعد قيام الثورة الصناعية ثم الثورة التكنولوجية استمرت مجتمعات الغرب في غليان التناقض بين القلة الرأسمالية التي استولت على مكاسب الآلة وجماعية الإنتاج التي تفرزها الثورة الصناعية،.. والتي وصفها سعاده بأنها «تضع الاجتماع على أساس جديد».

إن دور العقل في الارتقاء الإنساني. في عملية التفاعل، في مفهوم الدورة الاجتماعية الاقتصادية، كعامل انعتاق وتحرر بالصراع هو متعدد الأبعاد وكثير، ويكون محدوداً النظر إليه من زاوية واحدة من هذه الأبعاد.

فالعقل يمثل تحرير طاقة الإنسان من الفعل أكثر فأكثر في عملية التفاعل. ولكن من الخطأ الانحياز لبعد واحد للعقل وهذا ما حاولنا إيضاحه في فقرة سابقة في مستهل بحث هذه المقولة.

فالاختراعات والاكتشافات التي عززت وتعزز طاقة الإنسان العلمية تمثل مقولة تحرير طاقة الإنسان بالعلم للفعل في البيئة، وتمثل ارتقاء تقنيته وأساليب تطويع محيطه واستغلال موارده والسيطرة على حواجزه وعراقيله. ولكن هذا جزء من المعادلة وليس كلها. هذه معادلة العقل العلمي - العقل المستنبط الوسائل، وهو حتماً، كما قلنا، نتيجة تحرر العقل إطلاقاً من السلفية، وإلا فإن خضوع العقل للسلفية واستخدامه التقنية يخلق التناقض بين الوسائل والغايات.

إن تحرر العقل العلمي هو بعض المعادلة، خاصة للمجتمعات النامية أو التي تمر بمراحل التخلف.

هناك تحرير طاقة الإنسان بالثورة، والثورة لها بعدان: بعد الثورة التي تكسر التقاليد الرثة الجامدة والخرافات وتحرر عقل الإنسان حتى يستخدمه بالعلم - أي النظرة الفلسفية التي تطرح الحياة. ثم الثورة التي تحرر الإنسان من الظلم الاجتماعي - الاقتصادي، أي تتيح له السيطرة على الآلة لمصلحة المجتمع بدل رزوحه تحت سيطرة القلة المحتكرة للآلة «والمستعبدة للناس» كما يقول سعاده.

هذا يعني الثورة بمظهريها المادي والروحي، وهذا يعني العقل ببعده العلمي الوضعي الموضوعي وبعده الذاتي المنشأ التغييري في تكاملهما وربط الوسائل في الغايات.

إن أكبر تحدّ يواجه المجتمع التقليدي هو كيف يتحرر من تقاليد الجمود ويكسر حلقتها دون أن يقتلع جذوره الحضارية.

إن بلادنا تستطيع في ثورتها القومية الاجتماعية أن تنطلق من حضارتها وتراثها القومي لتحدث تآلفاً متناغماً بين خطوط نفسيتها التاريخية ومطالب ثورتنا المعاصرة وذلك بتحطيم التقاليد الرثة الجامدة والعودة إلى الجذور الحضارية. إن هدم المجتمع التقليدي يجري في القومية الاجتماعية لا باقتلاع جذورنا القومية الحضارية والتنكر لتراثنا بل بوصل هذه الأمة بجذورها، بإرساء نهضتها الجديدة على خط نفسيتها وحضارتها لعبور وهدة الانحطاط. يقول سعاده: «من النظر في مآثر هذه الأمة، من النظر في أعمالها، من النظر في سيرها، في أدبها، في مكتشفاتها، يتضح جلياً أن هذه الأمة ليست شرقية بالمعنى النفسي. هي ليست ذات نفسية شرقية لأن خصائص النفسية الشرقية المعروفة، والمعروفة بهذا التعريف، إن من خصائص هذه النفسية ليس الاتجاه إلى المستقبل وليس النظر في الكون وطبائعه بقصد معرفته وبقصد تسليط العقل عليه بل هي نفسية منصرفة إلى الشؤون الخفية في الاتجاهات النفسية. هذه النفسية لها نقطة ارتكاز هي ما يسمونه باللغات الفرنجية (ميستيسيزم). إنها تجنح بكليتها إلى الخفاء الى التعاليل الخفية للوجود ومرامي الوجود وتنتهي في الأخير في الغيب، وفي الاعتاق الغيبي للمفترض الغيبي الذي تتجه إليه النفس وتنتهي أخيراً فيما يسمونه باللغة الهندية «النرفان». نحن لسنا نرفانيين، إن الاتجاه الى

اختراع الحروف الهجائية يدل على أن لنا ناحية عملية قديمة في الحياة. «في هذا المبدأ يتضح أننا لسنا من الذين يصرفون نظرهم إلى شؤون الوجود إلى ما وراء الوجود. لسنا من الذين ينصرفون إلى ما وراء الوجود بل من الذين يرون بطبيعة وجودهم إلى تحقيق وجود سامٍ جميل في هذه الحياة، وإلى استمرار هذه الحياة سامية جميلة» (المحاضرات العشر - ص: 78).

1.2 - ليست المشكلة في الآلة بل في النظام:

وعلى القاعدة ذاتها نظر سعاده إلى الآلة وموقف الهاربين منها ومن نتائجها مؤكداً من خلال نظرته المدرحية أننا «نسير نحو نظام جديد لا نهرب فيه إلى الآلة بل نتقدم إليها، لا نعد الآلة مصيبة للبشرية ولا مستعبدة للناس بل نعمة للناس ومحررة للناس. ولكن بعض الناس الذين استعملوا الآلة الحديثة رأوا أن يستعبدوا الناس الذين لم يكن لهم ما يمكنهم من الحيازة على الآلات الضخمة الحديثة. إن سوء الحالة الاقتصادية ليس من الآلة بل من النظام السيء الذي تنمّيه النظرة الفردية اللامسؤولة عن المصير القومي في استخدام الآلة الحديثة. فالمشكلة مع النظام الذي يستخدم الآلة لا مع الآلة كحصيلة علمية للتقدم الاقتصادي.

فالارتقاء يتم بالتفاعل الذي أوصل العقل لثوريته الثقافية والاقتصادية خلال تفاعله النامي مع الطبيعة،.. ومن ثم لعصر الآلة،.. وأخيراً إلى المشكلات الاجتماعية - الاقتصادية الناتجة عن هذا الإنجاز، ويقدم معادلة النظام الجديد بديلاً عن النظام المتخلف الذي جعل من الآلة مصيبة، الآلة كإنجاز للعلم تدخل الإنسان عصر الجماعة، لأن الآلة لا يمكن أن يتعاطى معها الأفراد من حيث هم كذلك والتناقض بين عصر الثورة الصناعية والنظام الرأسمالي يكمن في كون النظام الرأسمالي يحدد علاقات الإنتاج على أساس الأفراد، بينما الثورة الصناعية تحدد طبيعة تطور الإنتاج على أساس الجماعة. هنا توضع الأمور في مسراها الطبيعي من حيث فهم مسيرة الإنسان وتطور نظمه في ضوء تطور المجتمع إجمالاً خلال عملية التفاعل.

2 - المنهج المدرحي أساس لفلسفة الصراع

وهنا نفهم مدلولين للصراع، صراع الإنسان مع البيئة وهو صراع تفاعلي منتج للحضارة بوجهيها المادي والروحي، الاقتصادي والثقافي (العقلي) والصراع الإنساني داخل المجتمع للتقدم. صراع المجتمع مع التناقضات - المعوقات لتقدمه، التي هي معوقات لتفاعله مع بيئته تفاعلاً أفضل.

إن مفهوم الأمة - مجتمع واحد هو مفهوم ثوري جذري لا يمكن أن يقوم مع استمرار التناقضات، فهو باستهدافه وحدة المجتمع يرفض استمرار معوقاتها وما يعطلها. لذلك جاءت مبادؤه الاجتماعية تقول بإلغاء الإقطاع كما نصّت على فصل الدين عن الدولة وإلغاء الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب، لقد حسمت مبادئه «بالإلغاء والفصل» ولم تقبل المهاودة مع كل ما يعتور وحدة المجتمع.

ولقد ربط سعاده بين الوحدة القومية والنظام الجديد بحيث اعتبر أن «الوحدة القومية لا يمكن أن تحصل ضمن نظام اجتماعي سيئ».

هكذا وضع سعاده شرط إلغاء، بحيث لا تقوم الوحدة القومية مع استمرار التناقضات التي يفرزها نظام اقتصادي سيئ أو نظام اجتماعي سيئ. وهذا يعني التطابق الكلي بين مدلولي وغايتي الصراع القومي مع البيئة والصراع داخل المجتمع حسب مفهومه، إذ غايتهما الوحدة «الاتحاد في الحياة» الناشئ عن التفاعل بين المجتمع والبيئة الطبيعية، و«الوحدة القومية المتينة» التي لا يمكن أن تنشأ في ظل نظام اقتصادي سيئ أو نظام اجتماعي سيئ.

أساس الصراع في الحالتين: الوحدة «الاتحاد في الحياة» في مدلول

الصراع مع البيئة – التفاعل و«الوحدة القومية المتينة» في مدلول الصراع داخل المجتمع ضد معوقات التفاعل الاجتماعي، الإقطاع والطائفية والاستغلال الرأسمالي والقبلية.. إلخ «النظام الاقتصادي السيئ والنظام الاجتماعي السيئ».

أساس الصراع هو الوحدة، والوحدة هي نفسها الوحدة القومية في صراع المجتمع مع الطبيعة الذي يولدها «اتحاد في الحياة» وفي الصراع داخل المجتمع ضد معوقات ومعطلات «الوحدة القومية المتينة» في الأنظمة السيئة المطلوب إلغاؤها بالثورة والتطهير المستهدفين إقامة النظام الجديد.

وليس الصراع مع الطبيعة، لإنتاج الحياة القومية ووحدتها، بمنفصل عن الصراع داخل المجتمع لتحقيق الوحدة القومية المتينة، ذلك لأن الأمة – مجتمع واحد، ولأن تحقيق وحدة المجتمع تحقق قدرته على التفاعل بصورة أجدى وأفضل مع الطبيعة وموجب تحقيق النظام الجديد. وهذه تريد الوحدة القومية على قاعدة النظام الجديد.

على هذه القاعدة إذن نفهم كيف أن مسألة النظام الجديد عند سعاده غير منفصلة عن القضية القومية لا في الموقف من الاستعباد الخارجي،.. ولا في الموقف من الاستعباد الداخلي، وهذه خاصية أساسية لمذهبنا القومي الاجتماعي.

يقول سعاده: «إن الحزب السوري القومي الاجتماعي يريد وحدة قومية تثبت فيها الأمة السورية في معترك الحياة والتفوق وهذه الوحدة القومية القوية لا يمكن أن تحصل ضمن نظام اقتصادي سيئ، كما إنه لا يمكن أن تحصل ضمن نظام اجتماعي سيئ، فإقامة العدل الاجتماعي الحقوقي والعدل الاقتصادي الحقوقي أمر ضروري لتلاقي النهضة السورية القومية الاجتماعية» (من شرح التعاليم في المحاضرات العشر ص 119 الجزء الخامس عشر من الآثار الكاملة).

ويقول سعاده في شرح المبدأ الأساسي السادس: «الأمة السورية مجتمع واحد» إلى هذا المبدأ الأساسي يعود بعض المبادئ الإصلاحية التي سيرد ذكرها وتفصيلها. وهذا المبدأ هو من أهم المبادئ التي يجب أن تكون حاضرة في ذهن كل سوري، فهو أساس الوحدة القومية الحقيقي ودليل الوجدان القومي (المحاضرات العشر ص: 94)، بحيث لا ينفصل الإصلاحي عن الأساسي ولا النظام الجديد عن القضية القومية، انطلاقاً من أن لا وحدة قومية متينة قوية في ظل نظام اقتصادي سيئ أو في ظل نظام اجتماعي سيئ، لقد وضع سعاده شرط إلغاء للوحدة القومية هو نظام اجتماعي سيئ أو نظام اقتصادي سيئ وهذه نقطة مركزية في فهم مذهبنا القومي الاجتماعي.

إن شمولية نظرة سعاده إلى الشأن القومي الاجتماعي بأبعاده المادية والروحية هي نظرة مركبة يخطئ كثيراً السطحيون بمحاولة تشطيرها واجتزائها. فالقضية القومية الاجتماعية – قضية وحدة الأمة ونهوضها – مسألة مركبة.

من هنا لا فصل بين الروحي والمادي، ولا بين القومي والاجتماعي، ولا بين الذات والموضوع في فلسفة التفاعل القومية الاجتماعية المدرحية.

التفاعل لا يتم بحافز الصراع الطبقي بل بطبيعة الاجتماع البشري، إلا أنه في كل مرحلة يتطلب نظاماً جديداً ليسقط معوقات التفاعل ويصون الطاقة البشرية والمادية.

وأبرز ما يقوله سعاده في ربطه بين النظام الاجتماعي وبين التفاعل الإنساني مع البيئة وهو ما يشكل قاعدة فهم القومية الاجتماعية: «فالنظام الاجتماعي هو دائماً حاصل تفاعل الناس والطبيعة أو البيئة بطريقة معينة أو منبعث منه وموافق له، ونحن نتتبع تطور الثقافة العمرانية بتتبع تنظيم الإنسان مجتمع بناء على هذا التفاعل» (نشوء الأمم).

ويشبّه سعاده التطور الاجتماعي بالتطور الإنساني، فهذا كان وفاقاً لمقتضيات تطورات الطبيعة/البيئة، أي أنه تطور محتم بالاختيار الطبيعي لا مفضل بالاختيار العقلي، فإن «التطور الاجتماعي نشوءاً وارتقاءً هو وفاق لتطور التفاعل بين الإنسان والبيئة مع الحاجة المادية»، ولكنه يفترق عن تطور النوع الإنساني بأنه «إذا كان العقل نتيجة تطورات الدماغ الفيزيائية فالعقلية الاجتماعية نتيجة تطورات التفاعل المادي لتأمين الحياة الاجتماعية» (نشوء الأمم)، أي أنها مرتبطة بالاقتصاد وليس بتطورات الطبيعة وهي نتيجة التفاعل الذي يدخل فيه العقل مع الطبيعة في استنباط الوسائل. هي نتيجة التفاعل المحكوم بالحاجة المادية لتأمين أسباب الحياة ولكنها ليست نتيجة الحتم كما هي حال التطور الإنساني.

الثقافة العمرانية مرتبطة بتنظيم الإنسان مجتمعه وفق هذا التفاعل بين الإنسان والبيئة. هذه هي الخلاصة الأولى والنظام الاجتماعي هو دائماً حاصل هذا التفاعل.

يستحق موضوع الاقتصاد كأساس للاجتماع البشري عند سعاده دراسة خاصة، نقتصر هنا على بعض مفاصل أساسية:

1- في كلامه في "نشوء الأمم" عن تحسين الإنسان أدواته الحجرية يقول سعاده: " وقد فسح له هذا الارتقاء الاقتصادي المجال لبروز الحاجات النفسية مع الإدراك".

" والاقتصاد هو نقطة الابتداء في بحث حالات الاجتماع حتى أننا نرى الحالة الاقتصادية تؤثر على الحالة البيولوجية أحياناً".

وهذا المعنى في "نشوء الأمم" يعبّر عنه سعاده على نحو أكثر تماساً بحالات اقتصادية ضاغطة. فإذا كان الارتقاء الاقتصادي يبرز الحاجات النفسية مع الإدراك فان العكس هو الصحيح ايضاً. الجوع الجسدي ينفي الجوع الروحي الى الموسيقى والفنون "والذي لم يتمكن من سد جوعه المادي - الفيزيائي لا يشعر بالجوع الروحي. والنفسية المثالية ترتقي بنسبة تأمين مقومات الحياة" (الإسلام في رسالتيه ص: 106).

3 - النظام الإجتماعي حصيلة تفاعل الإنسان مع البيئة:

يقول سعاده في نشوء الأمم: "والذين لا يفهمون العوامل الاقتصادية الخطيرة العاملة تحت كل مظهر من مظاهر الاجتماع وخصوصاً اولئك المنافقون الذين يرون المناقب أساس كل شيء يعيدون هذا التحول الجديد تفسخاً من جراء الفساد".

وهو هنا يتحدث عن نتائج الثورة الصناعية التي سلبت العائلة صناعاتها وصاحب الحرفة الفردية حرفته. وقد فقدت العائلة رابطتها المتينة السابقة. ولم يقتصر تأثير الثورة الصناعية على ذلك" بل أوجدت المعامل والمصانع الكبيرة التي تضم مئات الآلاف من العمّال في كل معمل او مصنع او فئات في المدن او المناطق الصناعية، هذه الطبقة من العمال التي عرفت في التعابير العصرية بلفظة "بروليتاريا" والتي اصبحت في العقود الأخيرة قوة سياسية هائلة.

فمسألة النظام الجديد عند سعاده أساسية وهي في فلسفته للتاريخ والتطور الاجتماعي يعتبرها لازمة لكل مرحلة من مراحل تطور التفاعل بين الإنسان والبيئة. فكلما خطا الإنسان خطوة متقدمة بهذا التفاعل، احتاج الى نظام جديد، الى اعادة تنظيم مجتمعه ليستوعب خطوة التفاعل مع البيئة. الثورة الصناعية كما يقول سعاده أوجدت أساساً جديداً للاجتماع. ولا بد أن نضيف أن الثورة التكنولوجية الكبرى الآن تضيف أساساً جديداً آخراً للمجتمع.

ويقول سعاده في" نشوء الأمم": " إذا كانت الرابطة الاقتصادية أساس الرابطة الاجتماعية البشرية، فالعمل ونظامه التعاوني مصدر نظام الاجتماع أساس بناء المجتمع" (نشوء الأمم ص: 108).

و" العمال هم المنتجون غلالاً وصناعةً وفكراً" و" النظام الرأسمالي لا يصلح للبقاء".

فأساس نظام الاجتماع عند سعاده ونظامه التعاوني، والعمال كما يحددهم في العديد من آثاره الكاملة خاصة في نداء الأول من أيار 1949، هم المنتجون غلالاً وصناعةً وفكراً، هم الكادحون اليدويون والعقليون معاً، هم ليسوا البروليتاريا على أهميتها وحيدة بل كل الشعب المنتج والكادح.

هذه النظرة الأشمل إلى صورة العمل هي التي يتطور نحوها العالم. ولكن عند سعاده لا يعني ذلك قفزاً فوق التناقضات الطبقية بل تعريفاً أوسع للطبقة العاملة على انها ليست العمال الصناعيين وحدهم، بل هم الفلاحون والمزارعون والفنيون والمثقفون والعلماء والمفكرون أيضاً .انطلاقاً من نظرة أشمل الى العمل.

وعلى هذه القاعدة قام المذهب القومي الاجتماعي على أن التفاعل الذي هو أساس التطور الإنساني وأساس نشوء الأمة، وبالتالي فأساس الإجتماع البشري لا يتم بحافز علاقات الإنتاج - أي بحافز الصراع الطبقي - بل يتم بحافز تأمين الحياة، أي الإنتاج وفعل العقل في البيئة لتأمين ذلك.

فالمحرك الأساسي له يعود إلى طبيعة الاجتماع البشري في تأمين حياته للتفاعل مع بيئته أياً كان النظام الاجتماعي. إلا ان هذا لا ينفي من جهة ثانية بل يؤكد قاعدة التفاعل بأن نظاماً اجتماعياً معيناً في مرحلة معينة يصبح عائقاً للتفاعل، فيتوجب سقوطه أو إسقاطه لمصلحة نظام يحقق في مرحلة تالية منع هدر الثروة المادية للأمة، بحيث يقوم نظام جديد يسقط معوقات التفاعل لمصلحة تفاعل أجزل وأفضل، يصون الطاقة الإنسانية ويقويها في فعلها، ويصون الثروة المادية للأمة، فلا يبددها بل يدفع عملية التفاعل إلى اختزان الطاقة البشرية وتطوير فعلها في البيئة. على هذه القاعدة كان موقف سعاده من أنظمة الإستعباد الداخلي وأنظمة الاستعباد الخارجي. أي كانت الثورية القومية الاجتماعية بالمعنى المحدد في العديد من نصوصه واصفاً نظام الاستعباد الداخلي متمثلاً بالإقطاع والرأسمال الفردي بأنه يستعبد المنتجين وبأنه يهدر ثروة الأمة وبأنه يبيع ثروة الأمة في صفقة الخيانة للإرادات الأجنبية.

والتصدي لهذا التحالف بين الاستعباد الداخلي والاستعباد الخارجي يتجسد في شمولية الثورة القومية الاجتماعية الرافضة للإمبريالية والاستعمار والصهيونية كاستعباد خارجي والرافضة للإقطاع وسيطرة الرأسمال الفردي كاستعباد داخلي. فتأسيس الثورية الاجتماعية على هذه القاعدة الأساسية من نظرة سعاده الى التفاعل بين الإنسان وبيئته، بين الجماعة القومية وبيئتها من أجل تأمين موارد الحياة. كما ان التفاعل بين الإنسان والبيئة قاد البشرية وإنجازات مجتمعاتها فذلك كانت وتيرة ارتقاء الفكر الإنساني الثوري والتغييري من مرحلة إلى مرحلة في الكشف عن الحقيقة الإنسانية الأشمل.

4 - المدرحية وحركة الصراع:

1.4- الوعي القومي مدخل للصراع: الوعي والموارد.

أ- التحرر من التبعية الفكرية:

إن مواجهة الاستعمار والإمبريالية لا تكون فقط بالتحرر من الإستغلال المادي - وهذا أساسي جداً - بل أيضاً بالتحرر من التبعية الفكرية والثقافية. ولذلك نرى سعاده في تحديده القيم يصرّ على أنه" إذا لم نرَ نحن حقاً.. حتى نراه أو حتى نشترك في رؤيته، فلا يمكن أن يفرض علينا فرضاً، لأننا نملك ذاتاً واعية فاحصة مدركة تقدر أن ترى الحق.. وأن تشترك في رؤية الحق والخير والجمال بعواملها الخاصة باستقلالها الروحي - الفكري الشعوري".

التحرر الفكري والاستقلال الفكري الذي أكّد عليه سعاده رفض الاستعمار الثقافي على أساسه.

وعلى هذا فإن مقولة الوعي القومي هي المحرك لحركة التحرير والصراع في سبيل الاستقلال القومي.

ب - الوعي القومي:

حين نتكلم عن موضوع القيم لا بد من أن نردد قول سعاده الهام حول الوعي القومي، يقول سعاده: «بلادنا غنية بمواردها، خصبة بأرضها، ولكن انعدام الوعي القومي في شعبنا أفقدنا معظم مواد أرضنا الأولوية الهامة، فهناك بترول الموصل ومنطقة الجزيرة وبترول النقب السوري وهناك أملاح البحر الميت التي وضع اليهود أيديهم عليها، وهناك أراضي كيليكية والاسكندرون وفلسطين

الخصبة التي انتزعت من السيادة السورية. وجميع هذه المواد الأولوية هي ضرورية لإنشاء صناعتنا وزرع مزروعاتنا وإنتاج ثروتنا القومية» (نداء الأول من أيار 1949).

«انعدام الوعي القومي» إذن أفقدنا الأرض، واستعادة الوعي القومي مطلوب لاسترداد الأرض، وهذا هو المدخل لفهم مبادئ الهوية القومية. فمبادؤنا الأساسية لا نتعلمها لمجرد العلم بالشيء، نتعلمها كمقولة صراع، نريد أن نعرف حدود بلادنا، أرضها، مواردها، أنهارها، لنقاتل من أجلها، لنقاتل من أجل السيادة عليها. الوعي القومي هنا وعي صراعي وليس وعياً أكاديمياً مجرداً، وفي الوقت نفسه يجب أن نتأمل هنا كيف أن سعاده في هذا القول يعتبر أننا فقدنا كيليكيا والاسكندرون وفلسطين، ويعدّد الموارد الكبيرة في هذه الأراضي السليبة. فالوعي هنا لاستعادة ما سلب من أرض وموارد، البترول، المعادن والسهول الخصبة، أي أن الوعي وإن كان شأناً فكرياً، ينصب على المادة وهذا هو التكامل المدرحي في فهم مقولة الصراع والوعي للصراع.

الوعي القومي منطلق الصراع والنظام الجديد للأمة المتحرر من الاستعباد الداخلي والخارجي هو مضمون هذا الصراع.

الوعي القومي عند سعاده مرتبط بالأرض وبالموارد الأولية، وحين يقول سعاده إن انعدام الوعي القومي في شعبنا أفقدنا مواردنا الأولية الهامة. «فالروحي مرتبط عنده بالمادي»، الوعي القومي هنا له وظيفة نضالية، إنه المحرك لاستعادة الأرض والموارد ضد من نهبوا البترول والموارد والأرض.

الوعي القومي بحقيقتنا القومية كمجتمع له تاريخ وجوده ونشوئه على أرضه القومية وله دورته الاجتماعية الاقتصادية ومواردها. وهذا هو الجانب المادي من الوعي القومي وعملية تحرر الأرض تأتي نتيجة هذا الوعي، نتيجة الإنسان الثوري المعقدن الواعي المقاتل. وهذا هو الجانب الروحي من العملية الثورية القومية الاجتماعية المركبة وهي العملية التي قادت قطار التغيير والتقدم والثورة في العالم انطلاقاً من واقعه الموضوعي، واقع الأمم والمجتمعات، لأنه ومن دونها يكون كل تصور آخر للتغيير يتحرك في إطار الامبريالية التي لا تتساقط إلا بحروب التحرير القومية، وبالتالي فإن استظلال الظلم الأكبر الواقع على الشعوب والمجتمعات في التبعية للاستعمار الأجنبي يقلّص المطالب الاقتصادية والعمالية إلى مطالب جزئية وثانوية. من هنا لا فصل بين القومي والاجتماعي في قضية الوجود والتحرر.

الذات والموضوع عند سعاده يتكاملان على قاعدة النظرية المدرحية. فانعدام الوعي يؤدي إلى فقدان الموارد والأرض، لأن الشعب الذي يعي وجوده المادي - الروحي هو الذي يقاتل دفاعاً عن هذا الوجود. الوعي القومي، إذن هو علم الوجود في زمن حرب الوجود، هذا هو المعطى الأول للشمولية القومية

الاجتماعية وعلى قاعدة هذه الشمولية، إلى جانب فقدان مواردنا الأولية الهامة بسبب انعدام الوعي القومي، هناك قضية نفسية المجتمع، كما يقول سعاده، ومناقبه أي الجانب الروحي من مقولة الوعي، وهذا الجانب هو الذي يعطي للنظرة القومية الاجتماعية الثورية شموليتها.

إن سعاده يرسم صورة لهذه الحركة التحريرية الشاملة الاستعبادين الداخلي والخارجي في خطابه في دير الغزال، وقد أدرك قبل نحو أربعين عاماً هذا الاستشراف الاستراتيجي، فهو يقول إنه لم يكن للاستعباد الخارجي أن يتحرك «لولا ورثة الظلم في الأمة، إنها الاحتكارات الخصوصية في شعبنا، إنها الإقطاعات التي تقيم من بعض الناس سادة يستعبدون الكل، إنها رأسمالية مادية خانقة تخضع العامل والفلاح في هذه البلاد الذي هو كل البلاد وكل الشعب».

2.4 - قصور المادية الأحادية عن الثورية الشاملة:

يقول سعاده بأن «الاجتماعيين الاقتصاديين» ويذكر هنا «ماركس وإنكلز وسواهم» قد ألقوا نوراً قوياً على مشاكل المجتمع الاقتصادية والاجتماعية، ولكنه يعتبر أن ما طرحوه «ليس حلاً لمشاكل المجتمع الاجتماعية والنفسية» (سعاده - بحث الديمقراطيين عن عقيدة - الجزء العاشر من الآثار الكاملة).

إن الاشتراكية لم تكن حلاً لأنها لم تقدّم نظرة شمولية لبناء الإنسان وحل المشاكل النفسية والروحية، ولم تنطلق من الواقع القومي، وبالتالي فالقومية الاجتماعية تقدم الحل الأشمل وليس الحل المتراجع عن الاشتراكية إلى الرأسمالية.

إن سعاده اعتبر أن الاشتراكية مذهب مادي لم يُحطْ بمشكلة المجتمع المادية - النفسية. ولذلك، هو يقدم في القومية الاجتماعية الحل الشمولي لمشكلات المجتمع المادية النفسية من زاوية نظر فلسفية شمولية مدرحية لا تأخذ بالحتمية المادية، وتستوعب التناقضات الاجتماعية والظلم الاجتماعي الاقتصادي، فتستله من الحرب الطبقية والفلسفة الجزئية ليكون جزءاً من الثورة القومية الاجتماعية الأشمل، أي ترفض تجزئة الصراع في مرحلة حرب التحرير القومية الاجتماعية وتؤكد توحيد الصراع القومي الاجتماعي في التصدّي لكل مشكلات المجتمع. ومآخذ القومية الاجتماعية الأساسية على الشيوعية، كما قال سعاده، هي في استبدالها الحرب القومية بحرب طبقية حتمية مسطحة أسقطت تناقض حروب التحرير والاستيطان الاستعماري. كما أنها أسقطت العوامل الروحية والنفسية الاجتماعية الضرورية في عملية النهوض القومي - وحل مشكلات المجتمعات من التناقضات الطائفية والعنصرية التي قد تكون أخطر من التناقضات الاجتماعية الاقتصادية فضلاً عن أنها تشكّل خللاً في القيم الإنسانية وتكاملها المادي - الروحي، فتغيير علاقات الإنتاج لا يكفي لتغيير الإنسان،.. وهذا هو الموضوع الأساسي.

وقد أثبت - كما ستظهر في فقرة لاحقة - تصور الماركسية في هذه المجالات عن خلل أدى إلى انتكاستها في العقد الأخير.

5 - النظام الجديد محصّن القضية القومية ومحقّق القيم المادية الروحية

انطلاقاً من المقولة الأساسية للتفاعل بحيث أنه يفرز في كل مرحلة نظاماً اجتماعياً تقتضيه مرحلة التفاعل التي بلغها للحفاظ على الطاقة البشرية وتحريرها من قيود المادة، وللحفاظ على الثروة القومية من الهدر والنهب ومن التبعية الأجنبية. تقوم القومية الاجتماعية، وفي الظروف الموضوعية لأمتنا ولطبيعة المرحلة في التطور الاجتماعي المعاصر، على الارتباط الكلي بين القضية القومية والنظام الجديد.

يقول سعاده في ما يشكّل قاعدة أساسية في إيضاح المضمون الاجتماعي - الاقتصادي للثورة القومية الاجتماعية... والارتباط الكلي والنهائي بين القضية القومية في المبادئ الأساسية وبين مسألة النظام الاقتصادي الاجتماعي، وذلك بعد أن يعرّف الوحدة القومية السورية في المبدأ الأساسي الخامس بقوله: «إن لنا في هذه البيئة الطبيعية وحدة زراعية اقتصادية متشابكة بالأنهر التي ذكرتها، لا يخطئها نظر عارف بشؤون الجغرافية والطوبوغرافيا. فترابط الزراعة في وحدة الأرض وريّها بالأنهر السورية - ويعدّد تلك الأنهر - وما بينها من جداول وبحيرات وبرك هو أمر واقع وطبيعي وتاريخي. ووحدة الأرض الزراعية هي أساس وحدة الحضارة السورية، ووحدة الإنتاج السوري بأنواعه هو أساس الاقتصاد القومي في سوريا» (المحاضرات العشر - ص 88) بحيث يؤكد أن الدورة الاجتماعية الاقتصادية ووحدة الأرض الزراعية هي أساس الوحدة

الحضارية السورية، لكن سعاده يكمل هذا النص الذي يحدد الحقيقة القومية بهذا الموجب حول استهداف النظام الجديد:

«إن إيجاد نظام جديد لهذا الإنتاج وأغراضه هو الإنشاء الأساسي لقيام النهضة السورية القومية الاجتماعية والارتقاء بالأمة السورية إلى أوسع حياة العز والخير» (المحاضرات العشر - ص: 88).

فسعاده... بعد أن عرّف وحدة الأمة السورية في وحدة حياتها الاجتماعية الاقتصادية على وحدة بيئتها الطبيعية، واعتبر ذلك «واقعاً طبيعياً تاريخياً أكد بأن الإنشاء الأساسي لقيام النهضة السورية القومية الاجتماعية هو إيجاد نظام جديد لهذا الإنتاج»، وبالتالي، إن المبدأ الإصلاحي الرابع الذي يحدّد ملامح نظامنا الاقتصادي الاجتماعي القائم على إلغاء الإقطاع وتنظيم الاقتصاد على أساس الإنتاج هو «الإنشاء الأساسي لقيام النهضة السورية القومية الاجتماعية»، وليس مسألة ثانوية، لأن هذه النظرة القومية الاجتماعية الشاملة لا تفصل بين ما هو قومي وبين ما هو اجتماعي. وهذا النص ليس وحيداً، بل هو ينتظم مع نصوص أخرى بتبيان أهمية وأولوية إقامة النظام الجديد وارتباطه عضوياً بصيانة وتحصين القضية القومية، وقد استهلينا هذه الفقرات بأن استهداف «الوحدة القومية المتينة» عند سعاده مرتبط بقيام النظام الجديد، لأنها لا يمكن أن تقوم في ظل نظام اجتماعي أو اقتصادي سيئ.

ومن اللافت أن المبدأين الأساسيين الخامس والسادس، الأول يعين وحدة البيئة الطبيعية للوطن السوري والآخر يعين أن الأمة السورية مجتمع واحد، قد نصّا على إقامة النظام الجديد، بحيث لا فصل بين الأساسي والإصلاحي، بين القومي والاجتماعي، وعلى قاعدة شمولية العوامل المادية الروحية، إذ رفض سعاده الحتمية المادية أو أية حتمية أخرى، ورفض الانحصار بالتفسير المادي الأحادي وبالمسار الطبقي لفهم التطور الاجتماعي، كما رفض التفسير الروحي الأحادي، إلا أن نظرته الأشمل التي ارتكزت على التفاعل لا الحتم، أكدت أهمية العوامل المادية والاقتصادية والنفسية وربطت ربطاً محكماً بين القضية القومية وإقامة النظام الجديد.

وهكذا تقترن القضية القومية من الأساس بالنظام الجديد، فلا فصل بينهما، لأن سعاده لم يؤسّس قضية قومية مجردة، كما رفض الانطلاق من قضية اجتماعية مسلوخة الجذور عن القضية القومية. فلا هو قبل بالمفهوم اليميني للقومية (الرومانسي أو الليبرالي أو الفاشي أو البرجوازي)، ولا هو قبل بالمفهوم الماركسي للاجتماعية المسلوخة عن جذورها القومية، والمرتكزة إلى الحتم المادي الأحادي، بل هو قال بالقومية الاجتماعية التي تأتلف فيها الحقيقة بكل جوانبها.

ولذلك، فالاقتصاد القومي بحاجة إلى نظام جديد، والاقتصاد القومي هو أساس وحدة الحياة القومية، ولا فاصل وجدار وهمي بين المبادئ الأساسية والمبادئ

الإصلاحية وبين القضية القومية والنظام الجديد، ولا بين العوامل المادية والروحية.

في المبدأ السادس نصّ على إلغاء الحواجز الطائفية، لأنه ما لم يتوحّد المجتمع، تتعرّض القضية لأشدّ الأخطار.. أي يحدّد الغرض الروحي النفسي من النظام الجديد.

ويرد في شرح هذا المبدأ «كل أمة تريد أن تحيا حياة حرة مستقلة تبلغ فيها مثلها العليا يجب أن تكون ذات وحدة روحية متينة» (المحاضرات العشر).

وإذا كانت «الوحدة القومية المتينة» لا تقوم في ظل نظام اجتماعي أو اقتصادي سيء، فإن أدهى ما يحل بالأمة إذا تفاقمت التجزئة الاجتماعية الطائفية أو القبلية أو العنصرية. يقول سعاده في شرحه هذه المسألة: «إن قاعدة الأمة الواحدة في المجتمع الواحد هي القاعدة الصحيحة للوجود القومي. لا يمكن أن تكون أمة واحدة إذا لم يكن هنالك مجتمع واحد، أي إذا لم تكن الهيئة الاجتماعية واحدة، فإذا حصلت تجزئة في المجتمع تعرّضت الأمة لخطر الانحلال النهائي والاضمحلال. فصحة الأمة وتقدمها لا يكونان إلا في مجتمع واحد». وعلى هذا، «فالحركة القومية الاجتماعية تقيم بهذا المبدأ - الأمة مجتمع واحد - وما يتعلق به» حرباً عنيفة حتمية على عوامل تجزئة الأمة إلى مجتمعات والأمة إلى أمم - هذه العوامل التي تجعل من كل طائفة دينية ومن كل عشيرة أو طبقة مجتمعاً قائماً بنفسه،.. وأمة منفصلة من الطوائف والعشائر والطبقات الأخرى». (المحاضرات العشر، الجزء الخامس عشر، ص: 80-81).

ويتلازم المادي والروحي في مواجهة المشكلة الاجتماعية بجوانبها المادية والروحية. فيقول سعاده في مجال إلغاء الطائفية «إن التقاليد المتناحرة كان لها أكبر تأثير في إضعاف وحدة الشعب الاجتماعية الاقتصادية وتأخير نهضتها القومية الاجتماعية» (ص: 108 المصدر نفسه).

ومن جهة ثانية اعتبر سعاده أن إزالة الظلم الاجتماعي الاقتصادي «يوجد مجتمعاً جديداً بنظرته إلى القيم الاجتماعية» ففي بحثه الهام «العقيدة السورية القومية الاجتماعية وبحث الديمقراطيين عن عقيدة» (الآثار الكاملة، الجزء العاشر، ص: 29-30)، فإنه يربط ربطاً عضوياً بين النظام الاقتصادي الجديد وبين القيم الروحية من ضمن مفهومه المدرحي المتكامل للحياة الاجتماعية، فيقول: «ففضلاً عن تعيين الأمة وتحديد القومية وإيجاد عقيدة وحدة الأمة قد نظر الزعيم في مستقبل الأمة وما يجب أن تصل إليه من الارتقاء والبحبوحة والعدل الاجتماعي الاقتصادي، فوضع لهذه الغاية المبدأ الإصلاحي الرابع من مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي يتضمن العقيدة الاجتماعية للسوريين القوميين الاجتماعيين، وهو إلغاء الإقطاع وتنظيم الاقتصاد القومي على أساس الإنتاج، وإنصاف العمل وصيانة مصلحة الأمة والدولة. وفي شرح

هذا المبدأ يقول الزعيم: «أما تنظيم الاقتصاد القومي على أساس الإنتاج فهو الواسطة الوحيدة لإيجاد التوازن الصحي بين توزيع العمل وتوزيع الثروة» إلى أن يقول: «هذا المبدأ العظيم يوجد مجتمعاً جديداً في نظرته إلى القيم الاجتماعية وفي حركته ونشاطه وعاداته وتقاليده، وأشياء أخرى، إنه يوجد أمة حية متآلفة قلوب أبنائها،.. وحاصلاً مستوى راقي في الحياة المادية والروحية. فالسوريون القوميون الاجتماعيون يجاهدون، ولهم عقيدة كلية تشمل جميع مناحي الحياة الاجتماعية وترتفع في مثل عليا غير متناهية».

نجد من هذا النص أن تحقيق المبدأ الإصلاحي، أي إقامة النظام الاقتصادي الجديد الذي ينصف العمل ويلغي الإقطاع وينظم الاقتصاد على أساس الإنتاج (حسب سعاده) يوجد مجتمعاً جديداً في نظرته إلى القيم الاجتماعية، وأنه يحقق للأمة حياة متآلفة مادياً وروحياً، أي تشمل القيم المادية والروحية معاً. وهذا يفسّر قوله في نص آخر: «والذي لم يتمكن من سد جوعه المادي الفيزيائي لا يشعر بالجوع الروحي. والنفسية المثالية ترتقي بنسبة تأمين مقومات الحياة إذا كانت النفس مؤهلة للارتقاء» (الإسلام في رسالتيه ص: 106).

واضح هنا أنه بدون سد الجوع المادي الفيزيائي لا يمكن الارتقاء بالحاجات الروحية وبلوغ النفسية المثالية. هذا التكامل المدرحي في مذهبنا القومي الاجتماعي يعطي للاقتصاد وللنظام الاقتصادي الجديد أولوية، انطلاقاً من أن لا حرية في ظل الرق/الاستعباد، ولا جوع روحي قبل سد الجوع المادي، ولا قيم إنسانية في ظل الظلم الاجتماعي والاقتصادي.

ويعالج سعاده مشكلة الأقليات والهجرات التي يعرقل التفتت الطائفي والاجتماعي انصهارها في الأمة بتسليط عامل الوعي القومي الاجتماعي التوحيدي، العامل الروحي - الاجتماعي - الثقافي عليها لتوحيدها بوعي وحدة حياتها، وفي أن لصراعها الموحد في سبيل النظام الجديد، الذي يحقق، بفصله الدين عن الدولة وبإزالة الغبن والظلم الاقتصاديين، وحدة المجتمع الشاملة.

يقول سعاده حول الهجرات والأقليات التي نزلت بالأمة، والتي لا بد من عامل صهر لها: «ويظل العامل الروحي مجزءاً بين العوامل الدينية، فلا يكون سبيل لصهر الأقوام الأتنولوجية، ولأن الطريقة الوحيدة لصهر هذه العناصر هي تسليط عامل روحي - اجتماعي - ثقافي عليها، هكذا حال كون الدين محور كل حياة دون وجود العامل الجوهري لصهر الجماعات - لكن مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي «أوجدت العامل الروحي - الاجتماعي - الثقافي الذي يتمكن من صهر الجماعات الدينية والأتنية في سورية وتحويلها إلى عناصر متجانسة متلاحمة في صلب الأمة السورية». وقد أقبلت جميع العناصر الدينية والأتنية عدا اليهود على الحزب. ورأت في مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي العدل الاجتماعي الاقتصادي لجميع العناصر التي يتكون منها الشعب السوري»

(الآثار الكاملة – الجزء السادس – ص: 71-72).

فما هي علاقة «العامل الروحي الثقافي الاجتماعي» الذي أوجدته مبادئ الحزب كعامل صهر لهذه الأقليات. وبين أنها رأت في مبادئه «العدل الاجتماعي الاقتصادي»؟ إن فهم هذا الترابط يأتي من متابعة نص آخر لسعاده حين يحدد أن غاية الحزب «إيجاد الوعي القومي على أساس اجتماعي اقتصادي تنفصل فيه الدولة عن المؤسسات الدينية والطائفية، وتوليد تيار من إرادة قومية موحدة تقرر المصير الأخير» (الآثار الكاملة، الجزء الرابع عشر، ص: 118).

«فالوعي القومي على أساس اجتماعي – اقتصادي» غير منفصل عن فصل الدين عن الدولة وتوليد إرادة قومية موحدة والأقليات والعناصر وجدت في مبادئ الحزب العامل الروحي الثقافي الاجتماعي الموحد لأنها وجدت فيها العدل الاجتماعي الاقتصادي أيضاً.

هذه هي القومية الاجتماعية المادية الروحية – الاجتماعية – الاقتصادية.

وبالتالي،.. فالوعي قومي اجتماعي، مادي – روحي، والعامل الروحي الموحد للجماعات الصاهر لها في قلب الأمة والمولد للوعي القومي الموحد، هو نفسه المتضمن «العدل الاجتماعي الاقتصادي».

6 - قيم الصراع: الحرية وأنظمة الرقّ والعبودية

لقد حدد سعاده في بحثه عن القيم أن الحرية هي قيمة القيم، والحياة صراع، والحق صراع، والحرية صراع. فالحرية قيمة صراعية عليا.

وإن وصف سعاده لأنظمة الظلم الاجتماعي الاقتصادي «بالاستعباد الداخلي» ولعلاقاتها مع الشعب المنتج عمالاً وفلاحين بعلاقات «الرق» ووصف هذه النهضة بأنها إخراج الأمة من علاقات «الرق» للنظام الرأسمالي القائم على الصناعات الكبرى،.. يقدم خلاصة واسعة، لأن المسألة ليست إصلاح نظام أو تطويره، بل إن «الحكم القيمي على الظلم هو أن الصراع بين قيم الحرية وبين الرق والاستعباد».

وبذلك يعطى الصراع في سبيل العدل الاجتماعي والاقتصادي بعده القيمي، وتعطى القيم مضمونها الاجتماعي، فهي ليست قيماً بالتجريد. القيم مرتبطة بالصراع الاجتماعي، بالتغيير الاجتماعي، وهي حصيلة هذا الصراع في سبيل النظام الجديد.

7 - تحقيق الوحدة الاجتماعية مهمة من مهام حرب التحرير القومية:

فتوحيد الأمة هو بإزالة معوقات وحدتها، لتحقيق الوحدة القومية المتينة التي لا تتحقق في ظل نظام اجتماعي أو اقتصادي سيئ، والتي تتعرض للاضمحلال من وباء التجزئة الاجتماعية الطائفية أو العنصرية. إن تحقيق الوحدة القومية هو شرط انتصار حرب التحرير القومية. سعاده يريد تعبئة الأمة لهذه المهمة الجليلة، بوحدة روحها وتماسك نسيجها الاجتماعي، فلا عرقيات ولا طائفيات ولا إقطاعيات ولا طغيان، بل الأمة مجتمع واحد. فالبعد القومي والبعد الاجتماعي متكاملان، كل يضفي على الآخر قوة لا تكون له بدون الأول. البعد الاجتماعي في ظل الوعي القومي يعني «إننا إذا زحفنا يوماً إلى فلسطين.. فلن نكون زاحفين لنصرة فئة دينية على فئة، مضمرين كل واحد لأخيه غير ما يظهر له، ونحن سائرون إلى الحرب، نسير واعين مدركين أننا سائرون نحو النصر لأمة واحدة، لشعب واحد».

«هذه هي طريقنا المختصرة الطويلة. نسير إلى الحرب،.. ليس فقط جماعة واحدة من الوجهة الروحية، بل من الوجهة الاجتماعية أيضاً. ليس لننصر إقطاعياً على إقطاعي أو رأسمالي،.. بل لنكسب أرضاً لا يمكن أن نقيم فيها مستعبدين من أنفسنا على أمتنا، نسير محققين انتصاراً لشعب حر يجتمع تحت علم دولته في نظام واحد ومجد واحد للجميع».

وبهذا وحده «يمكننا في المستقبل من أن نمحي العار الذي لحقنا من قضايا الماضي». «وبناء الأمم وانتزاع النصر» يكون بالانطلاق من هذا «الهجوم الاجتماعي» (الآثار الكاملة، الجزء السادس عشر، ص: 135).

إن سعاده يواجه امتداد الامبريالية والتبعية لأنظمة القهر الاقتصادي الاجتماعي ببرنامج إقامة النظام الجديد، كما يواجه مخطط الصهيونية لتفتيت مجتمعنا إلى دويلات ونزاعات طائفية عنصرية بهجوم الوحدة الاجتماعية.

القسم الثالث:

المدرحية في فهم الثورة المضادة المعاصرة

- الخزان الثوري المتعدد العوامل المادية - الروحية
- الطلاب نقطة ارتكاز للعمل القومي والثورة المضادة المتعددة الأصول

اعتبر سعاده الطلاب نقطة انطلاق وارتكاز في العمل القومي " وعنصر مؤهل لحمل قضايا جديدة لنفوس جديدة"(سعاده في الطلاب، 16 أيار 1949 ـ الآثار الكاملة، الجزء السادس عشر، ص 132). فإضافة إلى الفلاحين والعمال الذين ذكرهم في نصوص عديدة ودافع عنهم إزاء ظلم الإقطاع والرأسمال كقوة اجتماعية في معادلة التغيير والثورة، فإنه لم يحصر الثورة بإطار طبقي لأنه أرساها على الوعي. ولذلك اعتبر أن للطلاب والمثقفين دوراً طليعياً فيها.

وهذا ينسجم مع نظرته المادية ـ النفسية التي لا تحصر في القوى التي تفرزها علاقات الإنتاج، بل تعتبر أنه إلى السحق المادي الذي يقدّم الظروف الموضوعية، هناك الوعي العقيدي والفكري الذي يتموقع في الثورة، وربما يقودها.

ولقد أكدت الأحداث المعاصرة صوابية هذا الاستشراف لدور الطلاب، طلائع في معظم حركات التحرير. ويمكن أن نعتبر أن الخزان الثوري عند سعاده متعدد العوامل والمنابع ويشمل السحق المادي والنفسي ودور المفكّر والمثقف في العمل الثوري كطليعة فاعلة.

كما ان سعاده حدّد قوى الثورة المضادة بأنها ليست فقط في إطار الظلم الاقتصادي الاجتماعي، بل هي في العصبيات الطائفية والنعرات العنصرية والتخلف وعفونة عصر الانحطاط. واعتبر أن للعوامل الروحية والنفسية دوراً هاماً في الثورة والتغيير. ولقد ركّز على التراث الروحي للأمة في "الإسلام في رسالتيه"، فمع رفضه للطائفية، اعتبر التراث الروحي لأمتنا معيناً في تحقيق النهضة إذا فهم على أساس توحيدي، وتجاوز الانقسامات في الأمة. ولعل موقف سعاده من الصهيونية يقدم تميزاً فكرياً في مستوى العصر، إذ إن الصهيونية لا تفهم كمجرد مخفر أمامي للاستعمار، كما لا تفهم بمجرد تراث تلمودي، بل هي بمنظار النظرة المدرحية مركب أيديولوجي استعماري، فالصهيونية بتراثها التلمودي لم تكن لتتحقق لولا ارتباطها بالاستعمار. كما أن الخلفية الأيديولوجية للصهيونية هامة لفهم دورها الراهن ووظيفتها في عصر الاستعمار.

ولقد أشار سعاده إلى هذا الطابع المزدوج للصهيونية في أنها أخذت تخترق بتراثها التوراتي مجاميع دينية في الغرب توظف تأييدها لتحقيق مشروعها الاستيطاني الاستعماري.

وبانهيار الاتحاد السوفياتي ظهر الدور الذي أدته الصهيونية باختراق وتقويض الدول الاشتراكية، بل قبل ذلك بتهجير اليهود السوفيات وجذب مئات الألوف بالعصبية اليهودية من نظام اشتراكي كان مفترضاً أنه أممي وقد أذاب كل النزاعات الدينية والعنصرية!

نظرة لحركة التحرر القومي ضد الامبريالية

ولقد تبدل موقع الحرمان الأقسى من الطبقة في المجتمع الصناعي الحديث إلى الأمة في العالم المسحوق والمقهور المواجه لبشاعة استغلال الامبريالية. وتراجعت الثورة في الغرب على أساس طبقي بعد هذه التحولات، وانتصرت الثورة في الشرق البعيد على أساس تحرر قومي من الاستعمار، بنصرة لكفاح المسحوقين والكادحين والمميز ضدهم عنصرياً، والمثقفين الثوريين. ولم يؤدّ ذلك إلى إعادة نظر في النظرية أو إلى استنباط نظرية جديدة. لقد أعمت الحتمية المادية البصائر الماركسية عن إدراك الحقائق الجديدة. وحين جاءت البيروسترويكا بهرت بالمتغيرات، بتخلف الاتحاد السوفياتي عن الثورة التكنولوجية المعاصرة وسبق الرأسمالية المعاصرة لها دون تبيان الحافز الاحتكاري من وراء استخدام العلم وتسخيره لتفجير الثورة السوبرتكنولوجية لإحكام مزيد من السيطرة على الأسواق، وتحقيق أبشع استغلال للعالم الثالث ونهب موارده، بل تثبيت الهيمنة الطبقية في المجتمع الرأسمالي. لقد بهرت البيروسترويكا بنتائج الثورة التكنولوجية في العالم الرأسمالي دون تدقيق النتائج الاجتماعية. فاستسلمت للإنجاز المادي وفصلته عن الظلم الاجتماعي الاقتصادي بدل أن تفصل في التصور الحاصل بتقديم الطريق الجديد الذي يغادر الحتمية المادية، ليرسي الاشتراكية على الديموقراطية، وينقذها من شوائبها.

لقد نقضت توهمات البيروسترويكا إمكان التناقض مع الإمبريالية – نظرية لينين حول الإمبريالية ـ بل إن آخر ما توصل إليه لينين أن الثورة المنبعثة من الشرق ربما تكون أكبر فعلاً من كل التوقعات. وبدل أن تتطور النظرية مع تصاعد "ثورة الشرق" التي استشرفها سعاده في العشرينات، ثورة الأمم والشعوب المقهورة، لتأخذ بالواقع القومي المحرك لهذه الثورة، والذي أغفلته الماركسية اللينينية، حين توهمت أنه من "عصر البورجوازية الصاعدة" وليس واقع الحياة، ضاقت النظرية الماركسية لاحقاً حتى بلغت البيروسترويكا، بينما تصاعدت حركة ثورة الشعوب وتوسعت. ويمكن اعتبار البيروسترويكا الافتراق الفاصل عن ثورة الشرق... حين اعتبرت أن دور حركة التحرر القومي قد انتهى. وأن المسألة أصبحت مسألة إنماء اقتصادي، مع أن لا إنماء اقتصادياً مع الاستعباد السياسي كما أوضح سعاده في مقاله المبكر في العام 1939. "الاستقلال السياسي، والاستقلال الاقتصادي"(الجزء السادس من الآثار الكاملة).

لقد جرت الدول المستقلة حديثاً في قارات البؤس الثلاث إلى التبعية الاقتصادية للإمبريالية حتى المديونية والمجاعة والغزو العسكري المباشر في بعض الأحيان، خلافاً لكل توقعات البيروسترويكا. وفي أبحاث اقتصادي

البيروسترويكا، في أعداد "الانترناشونال أفّيرز" الربعية السوفياتية التي كانت تصدر حتى 1991، إن النمو الاقتصادي في العالم الثالث يتحقق كما كان يوصي البنك الدولي والدوائر الإمبريالية بالتحول إلى اقتصاد السوق. هذا الشعار الفضفاض الذي كان يعني بالنسبة للعالم الثالث رفع الدعم عن الحاجيات وإفلات جنون الأسعار وفتح الأسواق للسلع الأجنبية والسقوط في هوة لا قعر لها من الاضطراب الاجتماعي والإفلاس الاقتصادي والتبعية للإمبريالية.

أوهام البيروسترويكا

إن مفارقات البيروسترويكا أنها توهمت إمكان إعادة بناء الاشتراكية بتسول المال من الرأسمالية الغربية. وهي توهمت أنه بالإمكان أنسنة الإمبريالية التي ازدادت ضراوة وشراسة. وتوهمت أنه بالإمكان أن يسود القانون الدولي الأمم المتحدة وتسخّر القانون الدولي لمصلحة قانون الغاب.

ولقد أدى اقتباس اقتصاد السوق والنموذج الغربي الليبرالي إلى الفقر ودمار الاقتصاد وسيطرة المافيات والرساميل الأجنبية على مرافق البلد، لأن النظام الاجتماعي الاقتصادي لا ينقل من تربة إلى تربة بل هو وليد حاجات كل مجتمع وحسب ظروفه.

تداعي العمارات الفلسفية المادية الرأسمالية والشيوعية بنبوءاتها وحتمياتها ونماذجها

ولقد سقطت عمارات الفلسفة الشاهقة التي قامت على الحتمية التاريخية وانتصر مبدأ البدائل حيث أن العلم متجه إلى اعتماده بعد أن تخلفت الحتميات الماركسية عن حشر التجارب الإنسانية في أنبوبها والتنبؤ بمسارها. فإذا كان العلم الذي يعتمد المختبر يقول بالبدائل، فكيف في الحياة الإنسانية المركبة التي لا تخضع لأنبوب؟ بل يحرك الإنسان/ المجتمع مسار التاريخ على أساس التفاعل وتعدد العوامل المادية - الروحية، وهي فلسفة سعاده.

وأول ما نلاحظه هو اضطراب الفكر في تفسير التحولات العالمية. فقد ارتطمت الدوغمائية الماركسية بعوامل لم تحسبها في الحياة المادية، وثبت أن الحياة لا تخضع لأي حتمية، وأن الحياة لا تفسر بأحد مظاهرها المتعددة، وأن العوامل الأتنية والروحية وقبل ذلك الواقع القومي المركب أقوى من العامل الاقتصادي إذا جرّد عن تفاعل وحدة الحياة على أهمية هذا العامل. وفي المقابل... فإن منظّري انتصار الليبرالية الرأسمالية كبديل لجأ أبرزهم - فرنسيس فوكويوما - إلى الهيغلية معتبراً أن"نهاية التاريخ" هي في هذا الفردوس الرأسمالي الليبرالي. وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، فقد تخبط النظام الرأسمالي في تناقضات أشد سوءاً بما أظهره التفاوت الاقتصادي والعرقي في

المجتمعات الرأسمالية، وبروز العنصرية الحادة وسقوط برنامج النيوليبرالية الرأسمالية في الانتخابات الأميركية وفي مستوى القارة الأوروبية حيث عادت الأحزاب الاشتراكية. وأدى طغيان القيم المادية، وتفكك الروابط الأسرية الاجتماعية، وشيوع الاستباحة الخلقية والمخدرات والجريمة المنظمة في ظل بطالة متفاقمة إلى بروز عمليات إرهاب منظمة في المدن الصناعية الكبرى من طوكيو إلى أوكلاهوما إلى موسكو...

إن أخطر ما يمثله النظام الرأسمالي العالمي الذي تقوده الولايات المتحدة هو إنهاء الحرب الباردة بسقوط أحد قطبيها، بما يفجّر الحروب الساخنة التي تدار من قطب مسيطر بهدف نهب الخامات والثروات. وإن إفراز هذا النظام هو تفاقم الهوة بين رأس الهرم وأكثرية شعوب العالم التي تئن من المجاعات وتراكم الديون.

وقد ثبت أن الثورة التكنولوجية التي حققها الغرب الرأسمالي لم تكن لتخدم الإنسانية بأكثرية شعوبها وسكانها، إذا اقترنت بحافز الربح والجشع الرأسمالي. ومصالح الاحتكارات العالمية أدت إلى اتساع الهوة بين القابضين على أسرارها والشعوب المحرومة منها... التي تحولت إلى سوق لتصريف نتاجها وعمالاً بخيسي الأجور لآلتها... يسودها البؤس والمرض والفقر والمجاعة. فربع سكان العالم تحت خط الفقر المدقع.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن النظام الرأسمالي العالمي لم يكتف بنتائجه الاقتصادية الوبيلة، بل أدار الحروب الساخنة على أراضي ثلث العالَم بقصد وضع اليد على خاماتها.

فلم يكن هذا النظام بديلاً عن النظام الشيوعي، حتى في روسيا التي تعاني من بديل أسوأ مما كان. فاقتباس النظام الرأسمالي الغربي جلب عليها أخطر المشاكل، وشارف اقتصادها على الانهيار تماماً، وشمل خط الفقر فيها أكثر من ستين بالمئة من السكان. وتشير إحصاءات البنك الدولي إلى أن أعلى نسبة للفقر هي في أوروبا الشرقية في السنوات الأخيرة.

وكما فشلت الرأسمالية كنموذج مقتبس في هذه الدول - دون مراعاة واقع البلاد القومي - مما أدى إلى عودة الأحزاب الشيوعية في عدد من هذه البلدان إلى السلطة، أو إلى الاعتبار كقوة رئيسية. فإن هذه الأحزاب - بمعظمها - حاولت التوفيق في برامجها المعدلة بين الحفاظ على الحريات الديموقراطية والاقتصادية والاجتماعية والحفاظ على الاقتصاد الوطني. وعدلت برامجها لتكون أقرب إلى الواقع القومي لبلدانها ومطالب الإصلاح الاجتماعي - الاقتصادي والسياسي. وهي لو فعلت ذلك قبل الانهيار لربما كانت تلافته. فالشيوعيون العائدون تبدلوا ليصبحوا أقرب إلى الديموقراطية الاجتماعية، أي الديموقراطية بمضمون اجتماعي.

قصور الحتمية المادية والظواهر الإنسانية

إن مدخل بحثنا في نقدنا للماركسية، المرتبط بانهيار النظام الشيوعي في الاتحاد السوفياتي السابق وأوروبا الشرقية، يرتكز كما بيّنا إلى ثلاثة مرتكزات:

المرتكز الأول: إن الماركسية اعتبرت كمنطلق أساسي لها، وعلى أساس فلسفة المادية التاريخية، أن العالم منتقل حتماً من الرأسمالية إلى الاشتراكية فالشيوعية (مبدأ الحتمية التاريخية). ولقد ثبت العكس بالنسبة للنظام الشيوعي نفسه، فسارع قادته في الاتحاد السوفياتي السابق إلى التحول من الشيوعية إلى الرأسمالية (!!) واعتبروا أن إنقاذ بلادهم يكون بهذا الانتقال، فحكموا هم أنفسهم على نظريتهم، فضلاً عن أن تحول نظام شيوعي إلى نظام رأسمالي أسقط المرتكز الرئيسي للحتمية المادية الماركسية.

المرتكز الثاني: إن الحتمية المادية حصرت الظواهر الإنسانية والصراع الإنساني في الإطار الطبقي المادي، وأغفلت العوامل الأخرى المركبة في الحياة. فمن المفارقات أن يظهر الدين مثلاً كقوة رئيسية بعد انهيار الشيوعية. وأن تظهر الصهيونية بتنظيم متوسع في الاتحاد الروسي بعد سبعين عاماً من النظام الماركسي، ثم أن تنفجر الأتنيات وصراعاتها فضلاً عن بروز الواقع القومي كأقوى قوة أغفل وجودها الفكر الماركسي إذ اعتبر ببساطة أن شخصيات الأمم ذابت أو ذوبت في الرابطة السوفياتية وفي الأممية الموهومة.

المرتكز الثالث: يمكن أن يكون محصلاً لما سبق، فسقوط مبدأ الحتمية المادية أكد صوابية مبدأ التفاعل وتعدد العوامل المادية والروحية في الحياة الإنسانية، وهذا ما قامت عليه القومية الاجتماعية.

ولو توقفت الماركسية عند آخر رسائل إنجلز وانطلقت منها، لكانت اعتمدت التفاعل لا الحتمية. ففي رسالته إلى جوزيف بلوخ في 21 أيلول 1880 يعتبر إنجلز أنه وماركس ملومان في اضطرارهما إلى التأكيد على العامل الاقتصادي دون غيره في سجالهما مع معارضيهما، مما أدى إلى البلبلة وسوء الفهم... ولم يكن لديهما الوقت والفرصة "لكي يتاح إعطاء العوامل الأخرى المشاركة في عملية التفاعل نصيبها وحقها في الاهتمام".

وفي مقدمة كتابه "حرب الفلاحين في ألمانيا" يعتبر إنجلز أن العمال الألمان يتقدمون على العمال البريطانيين (الأعرق نقابياً) بكون الألمان يملكون الحس النظري "إذ بدون الفلسفة الألمانية، خاصة فلسفة هيغل، فإن الاشتراكية العلمية، ما كانت أبصرت النور". هكذا تتقدم الأيديولوجيا على المعطيات الاقتصادية.

ولقد تأرجح تعريف الأمة في الماركسية بين جماعة مرحلية "صاعدة في عصر البورجوازية"، وبين تعريفها "بالجماعة الثابتة" التي تنتجها عملية مخالطة مستمرة على الأرض (دراسة ستالين عن القومية).

وفي التعريف الماركسي اللينيني للأمة - الذي وضعه ستالين - يساوي بين "الحياة الاقتصادية والخصائص النفسية" و "الأرض وجامعة اللغة"، ويعتبر "أن عدم وجود ولو دليل واحد من هذه الدلائل يكفي لكي تكف الأمة أن تكون أمة" (ص 11 - 12 من كتاب الماركسية والمسألة القومية - النسخة الرابعة). وهذا يعني أن تحديد الأمة اختلف عن تحديد الطبقة حيث انتفت البنية التحتية (العامل الاقتصادي الطبقي) كأساس ومحرك للتاريخ وسائر العوامل كبنى فوقية تتحرك به ومنه. إن هذا يعني نفياً لاعتبار الأمة قومية ظاهرة من "عصر البورجوازية الصاعدة" ويؤكد - كما ورد أيضاً في التعريف - أنها "جماعة ثابتة من الناس تتألف فقط نتيجة مخالطة طويلة ومنتظمة... تستحيل بدون أرض مشتركة".

هذا التناقض يلخص مفارقة وتناقضاً يبرز أن وجود الأمة ثابت وغير خاضع في وجوده للشأن الطبقي، وبالتالي هو أشمل منه. فكيف يتحرك التاريخ بغيره؟

ولقد أثبتت الأحداث ومسار العصر أنه حيث انفجر بركان قومي في وجه الاستعمار والتبعية وعلاقات الظلم الاجتماعي المرتبطة بالاستعمار، حيث انفجرت حرب تحرير قومية وقادها حزب شيوعي انتصر من فيتنام إلى كوريا إلى الصين إلى كوبا وإلى حد كبير روسيا التي انفجرت ثورتها خلال حرب عالمية، كانت الدوافع قومية ولم تكن طبقية.

فالأمة "الجماعة الثابتة" هي المحرك الأساسي للتاريخ آخذاً بالاعتبار التناقضات الاجتماعية كجزء من المسار. وثبت أن القرار السياسي بإحداث التصنيع جاء لاحقاً للثورة وصادراً عنها. وهذا الارتباط بين السياسي والاقتصادي لحظه سعاده في مقال نشره في "سورية الجديدة" في 1939/9/30 (الاستقلال السياسي مفتاح الاستقلال الاقتصادي). ولم تصدر أي ثورة شيوعية عن وضع صناعي متقدم، بل على العكس، فإن الفاشية كانت المولود غير المنتظر في ألمانيا 1932 من رأسمالية صناعية متقدمة، ولم تحقق الفلسفة المثالية الألمانية لإنجلز نبوءته بأن تعجل في انتصار البروليتاريا البريطانية. واستقرت الرأسمالية الليبرالية بعد تشذيب مخالبها بالضمانات الاجتماعية في معظم الدول الصناعية.

الواقع القومي لم تذوّبه أي رابطة

ثاني ملاحظة هي أن الفكر الغربي تجاهل - كما تجاهل من قبل الفكر السوفياتي - الأهمية الفاصلة والمحورية للواقع القومي للأمم. فلم ينفع طمس هذا الواقع وعدم التأسيس عليه ومحاولة تذويبه بالرابطة السوفياتية التي لم تكن بديلاً. وثبت أن القوميات والأتنيات انفجرت بمجرد انهيارها، وكانت كامنة وقوية. واختزال انهيار الاتحاد السوفياتي بمسألة النظام الاقتصادي اجتزاء

لحقيقة الواقع القومي الذي لم تذبّه رابطة أخرى، ولم يقدم الفكر الغربي مفهوماً سوسيولوجياً علمياً للواقع القومي، لذلك التبس عليه بالشوفينية أو العنصرية. وتوهم الغرب أن القومية والديمقراطية نقيضان، بينما الأخيرة تتأسس على الأولى.

فكر سعاده التركيبي والفكر الغربي التناقضي:
الديمقراطية القومية الاجتماعية

لقد تميز فكر سعاده بالفكر التركيبي بدل الفكر التناقضي الغربي. فالدولة الديمقراطية هي الدولة القومية، لأن الدولة القومية الديمقراطية هي التي تقوم على الإرادة العامة، وعلى التحرر من القهر الذي تفرضه الامبراطورية، سواء اتخذت شكل قيصر أو أي رابطة تفرض قسراً على الشعوب، إلغاء وجودها "اصطناعياً"، وإنكار تمايز شخصياتها. ولا تناقض بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية الاقتصادية، كما حاول الغرب والشرق قسمة العالم، لأن الديمقراطية الحقيقية هي التي تشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع. ومأخذ سعاده الأساسي على الديمقراطية الليبرالية أنها فارغة المضامين الاجتماعية الاقتصادية إذ تحوّلت إلى مبرر لتكريس حكم أصحاب الرأسمال والإقطاع. كما أن مأخذه الأساسي على النظام الشيوعي أنه أغفل القيم الروحية والإرادة الحرة للإنسان، فعطّل الإبداع وضيّق الأفق.

وسعاده كان ديمقراطياً بامتياز، لأن الديمقراطية التي دعا إليها هي ديمقراطية مميزة، هي ديمقراطية النهضة والرقي، انطلاقاً من أن الحق قد يبدأ بفرد أو بجماعة، ولكن شرطه ليصبح قيمة اجتماعية أن يمتد في المجتمع بلا حدود. وهذا يعني عدم حصر ممارسة ديمقراطية النهضة والرقي بفرد أو جماعة، بل النضال لتمتد في المجتمع من دون حدود لترتفع إلى هذا المستوى من الرقي.

وحزب النهضة مفروض أن يكون النموذج على صدقية هذا المفهوم النهضوي.

لا حتمية ولا نهائية
بل عالم أجدّ ينبثق من العالم الجديد في اضطراد التقدم

لقد تميز فكر سعاده أنه وعى باكراً أن تطاحن النظامين ليس لغرض إنساني، بل لتثبيت ما وصفه بالإقطاعية الأنترناسيونية التي كانت متعددة، وأصبحت منفردة بمقدرات العالم لتعود متعددة إذا كبرت القوى الاقتصادية الأخرى. وتميز فكر سعاده بأنه رفض التبعية باسم الأممية أو الإنسانية لمراكز الاستقطاب العالمي، وأصر على عالم تسوده المساواة بين الأمم الحرة في تقرير مصيرها وفي موارد العالم. وتميز فكر سعاده بأنه رفض الحتميات ونظرية "الإنسان الأخير"

و"نهاية التاريخ"،... إذ قام تفكيره على التفاعل وعلى الإنسان/المجتمع مسير التاريخ والفاعل في تغيير مساره، وعلى أن لا حدود للتقدم "فكلما وصلنا إلى قمة تراءت لنا قمم أخرى"، وأن "العالم الأجد لا بد أن ينهض ويتأسس على عالمنا الجديد".

فخلافاً للحتمية التاريخية المادية أو الهيغلية التي أوقفت قطار التقدم عند محطة افتراضية "لفردوسها الموعود"، الدولة الألمانية عند هيغل والفردوس الشيوعي عند ماركس، وسقوط هذه الفرضيات، لأن الحياة لا تعلّب، فإن نظرة سعاده بارتكازها إلى العقل والعلم، لا تتوسّل أية عمارة فلسفية أو منطقية جاهزة، رغم أنه فجّر نهضة تغييرية ذات منهج فلسفي مستقل، تعمل على بناء عالم جديد، فإنه باضطراد المعرفة وموضوعيتها اعتبر أن العالم الجديد الذي تصارع النهضة لقيامه، "هو عالم فوق العوالم الماضية، ودرجة لا بد منها لاضطراد ارتقاء الإنسانية النفسي، ولذلك فهو عالم خالد"، لكنه يختلف عن أوهام "نهائية العالم" التي طلع بها فوكوياما بعد نشوة النصر. السراب الذي عاشت به الرأسمالية الغربية عند سقوط الاتحاد السوفياتي ولم تلبث السنوات التالية أن بدّدته.

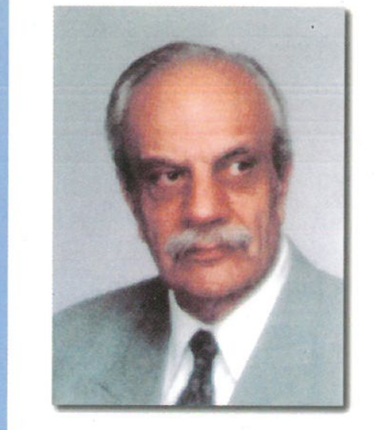
إن عالم سعاده الجديد الخالد لا يغلق الباب على التقدم نحو "عالم أجد"، "على الأقل تكون النفوس التي ارتقت إلى هذا العالم الجديد مستعدة لتقبل عالم أجد"، وبموضوعية، لم يرسم سعاده صورة هذا العالم الأجد إذ "لا يمكننا الآن والى أمد بعيد تصوّر موجباته وحقائقه وقضاياه". "ولكننا نتصور بموجب مبدأ الاستمرار والاضطراد الفلسفي". "إنه لا بد أن يكون ذا اتصال وثيق بعالم نظرتنا الجديدة"، أي ينهض العالم الأجد على ما حققه العالم الجديد. (الصراع الفكري في الأدب السوري،ص: 96).

الفهرس

صدر للمؤلف

فلسطين أبعد من الحل السياسي والحل العسكري		1968/4/25
حرب وجود لا حرب حدود	**بيسان للنشر والتوزيع لبنان**	1970/7/8
الأقليات في العالم العربي	**دار النهار للنشر لبنان**	1971/2/2
المنطلقات الفكرية والإستراتيجية الثورية (ج 1)	**عمدة الإذاعة**	1976/1/1
حرب التحرير القومية	**مطبعة بيروت**	1979/1/1
أنطون سعاده والإنعزاليون	**دار فكر للأبحاث والنشر لبنان**	1980/1/1
ملاحق «كمب ديفيد» الأمريكية الأوروبية		1981/1/1
المواجهة القومية على الساحة اللبنانية	**دار فكر للأبحاث والنشر لبنان**	1982/1/1
المؤامرة في طورها الأخير	**عمدة الإذاعة**	1989/11/1
نحو إستراتيجية عربية جديدة	**دار فكر للأبحاث والنشر لبنان**	
الصهيونية الشرق أوسطية والخطة المعاكسة	**شركة المطبوعات للتوزيع والنشر**	1997/1/1

إنعام رعد في سطور



- ولد في عين زحلتا - قضاء الشوف في 8 شباط 1929.
- والده توفيق رعد، الصيدلي المتخرج من الجامعة الأميركية في بيروت في العام 1901، والمهاجر لبضع سنوات إلى أوستراليا، والعائد إلى لبنان عاملاً في السياسة والصحافة. والدته أسما مغبغب.

متزوج من ليلى داغر ولهماثلاثة أولاد: عصام، أمال وإلهام.

- انتمى إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي عام 1944 وتحمل عدة مسؤوليات حزبية بقيادة الزعيم المؤسس أنطون سعاده وصولاً إلى ترؤسه الحزب أربع دورات.
- حائز على بكالوريوس في العلوم السياسية والإقتصادية من الجامعة الأميركية في بيروت العام 1949.
- قدّم امتحانه وهو في السجن، إثر الثورة القومية الأولى العام 1949.
- عضو نقابة الصحافة اللبنانية.
- عضو نقابة المحررين.
- عضو اتحاد الكتاب اللبنانيين.
- تحمل مسؤوليات حزبية مركزية عديدة، منها: عميد للإذاعة والإعلام وعميد للخارجية وذلك منذ العام 1957 وانتخب عضواً في المجلس الأعلى منذ العام 1954 حتى وفاته.
- انتخب رئيساً للحزب في العام 1975، ثم أعيد انتخابه في العام 1980 وأعيد انتخابه للمرة الثالثة في العام 1992، ثم للمرة الرابعة في العام 1995.
- منح وسام سعادة في العام 1977 وهو أعلى وسام شرف في الحزب تقديراً لحسن قيادته.
- من مؤسسي المجلس السياسي للحركة الوطنية اللبنانية في العام 1975.
- انتخب نائباً لرئيس الحركة الوطنية 1975 - 1982.
- مثل الحزب في جبهة الخلاص الوطني (1983 - 1984) وفي عضوية الجبهة الوطنية الديمقراطية (1985- 1984).
- شارك في وضع البرنامج المرحلي للمجلس السياسي المركزي (1975)، كما شارك في وضع برنامج الجبهة الوطنية الديمقراطية (1984) وجبهة الاتحاد الوطني (1986).
- شارك في تأسيس منظمة الأحزاب التقدمية والاشتراكية في حوض البحر الأبيض المتوسط في العام 1976.
- أحد مؤسسي وقياديي اللجنة العربية لمكافحة الصهيونية والعنصرية وترأسها.
- مثل الحزب في العديد من المؤتمرات السياسية والعربية والدولية.
- على أثر المحاولة الانقلابية التي قام بها الحزب عام 1961، اعتُقل مع عدد كبير من رفقائه، فحكم عليه بالإعدام ثم خفض إلى المؤبد إلى أن أصدر رئيس الجمهورية شارل حلو عفواً عن المسجونين القوميين في أوائل العام 1969.
- زار المغترب القومي بين العام 1959 و 1995 في جولات متعددة حيث ألقى محاضرات في جامعات هارفرد، جورج تاون، وفي لندن، منها محاضرة في مجلس العموم بدعوة من مجالس الشرق الأوسط في الأحزاب البريطانية الثلاثة في العام 1981. كما حاضر في جامعة ملبورن وفي العديد من النوادي الفكرية ونوادي الجاليات السورية والعربية.
- من مؤلفاته: حرب التحرير القومية (1970)، المنطلقات الفكرية الاستراتيجية الثورية (1976)، حرب وجود لا حرب حدود (1979)، أنطون سعاده والانعزاليون (1980)، كامب ديفيد وملاحقه الأوروبية الأميركية (1980)، المواجهة القومية على الساحة اللبنانية (1982)، المؤامرة في طورها الأخير (1989)، الصهيونية الشرق أوسطية (1997).
- وافته المنية في 27 شباط 1998 حيث كان يعالج في الولايات المتحدة الأميركية إثر إصابته بمرض عضال.